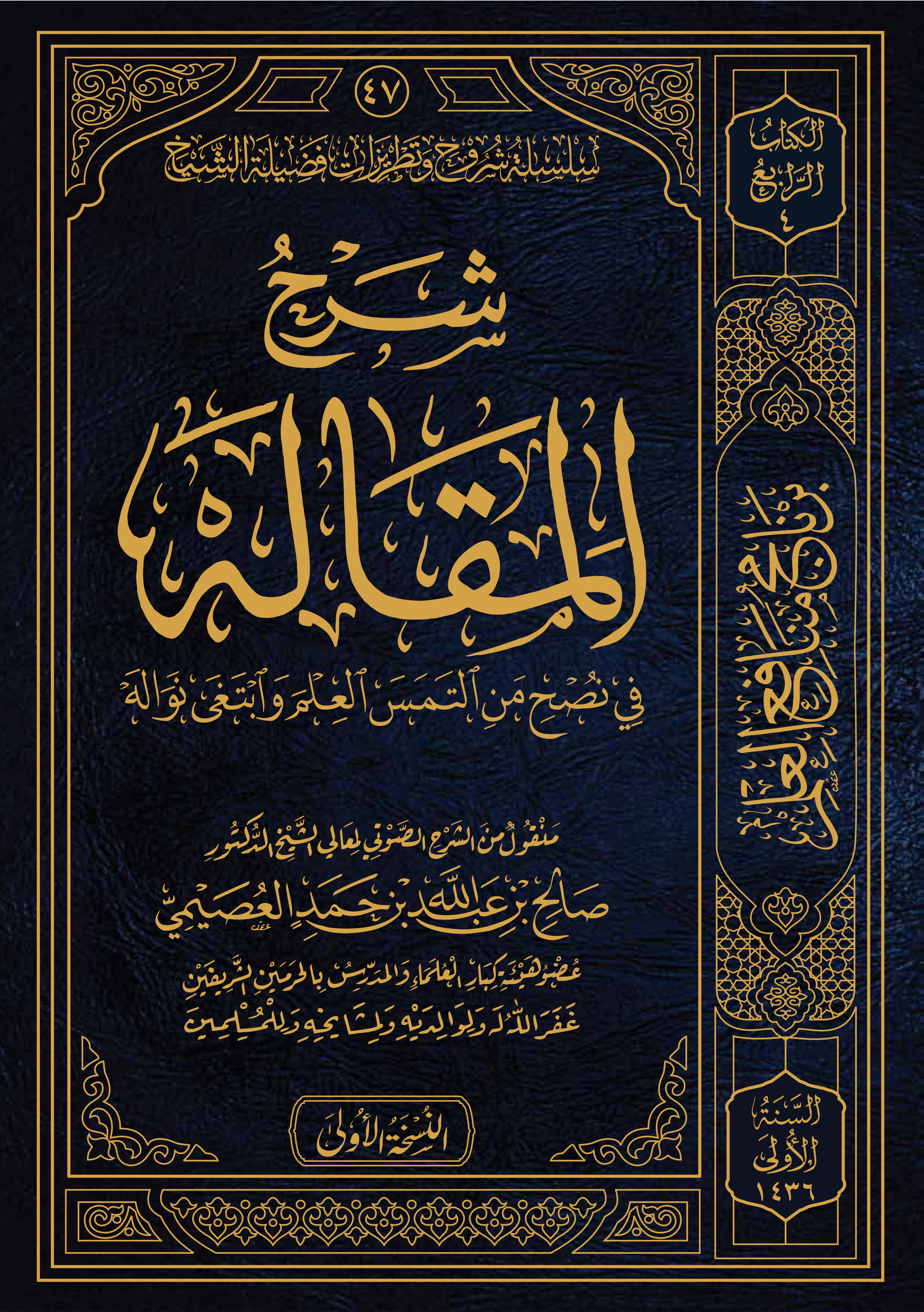
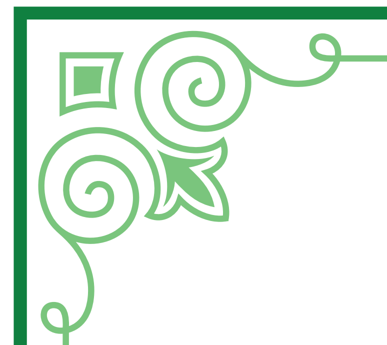
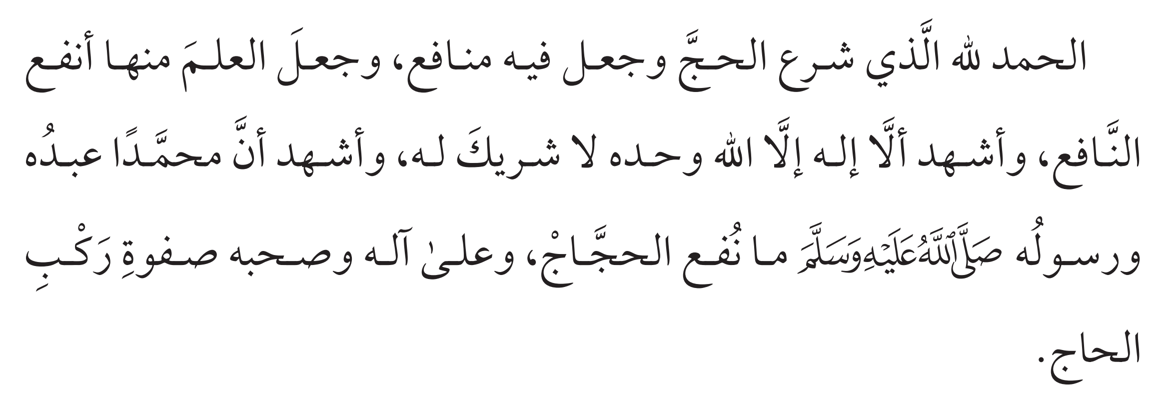

٤٧
سلسلة شروح وتطريزات فضيلة الشيخ
شرح المقالة
في نصح من التمس العلم وابتغى نواله
منقول من الشرح الصوتي لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
عضو هيئة كبار العلماء والمدرس بالحرمين الشريفين
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين
النسخة الأولى
الكتاب الرابع
٤
السنة الأولى
١٤٣٦







الحمد لله الَّذي شرع الحجَّ وجعل فيه منافع، وجعلَ العلمَ منها أنفع النَّافع، وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما نُفع الحجَّاجْ، وعلىٰ آله وصحبه صفوةِ رَكْبِ الحاج.

أمَّا بعدُ:

فَهٰذَا شَرْح (**الكتاب الرَّابع**) مِنْ برنَامجِ (**منافعِ العلمِ**) في (**سنتِهِ الأولى**)؛ ستٍّ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ، وهو كتابُ «**المَقاله في نُصحِ مَنْ التمس العلم وابتغى نواله**»، لِمُصنِّفه صالحِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حمدٍ العصيميِّ.







قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي جعل طلب العلم مِن أجلِّ القُرُبَات، وتعبَّدنَا به طولَ الحياةِ إلىٰ المماتِ.

وأشهد ألَّا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا رسولُه ورحمتُه المهداه.

صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللهُ مَا جَرَىٰ الْقَلَمْ ... وَآلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْحِكَمْ
ثُمَّ السَّلَامُ صِنْوُهَا الْمُخْتَارُ ... مُعَمَّمًا مَا مُدَّتِ الْأَبْصَارُ
مِنْ ضَارِبٍ فِي الْأَرْضِ لِلْعُلُومِ ... مُلْتَمِسًا هِدَايَةَ الْقَيُّومِ

أمَّا بعدُ:

فإنَّ فضيلة العلم مشهوره، وحُجَجَ شرفِ أهله متكاثِرةٌ مَوْفُوره، فهو مَنبعُ الخير في الدَّارين، وجُنَّةُ العبد من شرور النَّشأتين.

به تحيا القلوب وتَسْلَم، وتطمئنُّ النُّفوس وتُحكَم، فَمَنْ وعىٰ قلبُه العلم النَّافع ذاقَ حلاوة الأُنسِ بالله، ووجد لذَّة طاعتِه والتماسِ رضاه.

فمبتدأُ طلبِه من القلوب، وجميلُ أثرِه إليها يرجع ويؤوب.

قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩].

وللعلم آلةٌ تُقرِّب نَوَالَه، وتذلِّل صِعابَه، وأوعىٰ مقالةٍ بيَّنَتْ آلتَه - ممَّا طالعتُه - ما ساقه الماوَرديُّ في «أدب الدُّنيا والدِّين»، وقد جعلَها تسعةَ أمورٍ - مع ما يلاحظ المتعلِّمَ منَ التَّوفيق، ويُمَدُّ به من المعونةِ -:

الأوَّل: العقلُ الَّذي به تُدرَك حقائق الأمور.

والثَّاني: الفِطنة الَّتي يَتصوَّرُ بِها غوامضَ العلوم.

والثَّالث: الذَّكاء الَّذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما علمَه.

والرَّابع: الشَّهوة الَّتي يدومُ بِها الطَّلب، ولا يُسرِع إليها الملل.

والخامس: الاكتفاء بمادَّةٍ تُغنيه عن كُلَفِ الطَّلب.

والسَّادس: الفراغُ الَّذي يكون معه التَّوفُّر، ويحصل به الاستكثار.

والسَّابع: عدم القواطع المذهلة؛ مِن هموم، وأشغالٍ، وأمراضٍ.

والثَّامن: طولُ العمر، واتِّساعُ المدَّة؛ لينتهيَ بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال.

والتَّاسع: الظَّفَرُ بعالمٍ سمحٍ بعلمِه، متَأنٍّ في تعليمِه.

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

ابتدأ المصنِّف - وفَّقه الله - كتابه بالبسملة، ثمَّ ثنَّىٰ بحمد الله (الَّذي جعل طلب العلم مِن أجلِّ القُربَات، وتعبَّدنَا به طولَ الحياةِ إلىٰ المماتِ)؛ **والقُرُبات**: جمع قُرْبةٍ؛ وهي الطَّاعة المفعولة لله تقرُّبًا إليه.

ثمَّ ثلثَّ بالشَّهادة لله بالوحدانيَّة، ولمحمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالة.

ثمَّ ربَّع بالصَّلاة والسَّلام علىٰ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ آله وصحبه شعرًا، فقال:

(صَلَّىٰ عَلَيْهِ اللهُ مَا جَرَىٰ الْقَلَمْ   وَآلِـهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْحِكَمْ
ثُمَّ السَّلَامُ صِنْوُهَا الْمُخْتَارُ   مُعَمَّمًا مَا مُدَّتِ الْأَبْصَارُ
مِنْ ضَارِبٍ فِي الْأَرْضِ لِلْعُلُومِ   مُلْتَمِسًا هِدَايَةَ الْقَيُّومِ)

وقوله: (ثمَّ السَّلامُ صِنْوُها المختارُ)؛ أي مُصاحبِها المقارِنُ لها.

ثمَّ قال: (فإنَّ فضيلة العلم مشهوره، وحجج شرف أهله متكاثِرةٌ مَوْفُوره)؛ فالقرآن والسُّنَّة مملوءان بالحجج البيِّنة والدَّلائل المبيّنة فضيلة العلمِ وشرفَ أهله.

وممَّا تضمَّناه أنَّ (العلمَ منبعُ الخير في الدَّارين)؛ أي فِي الدُّنيا والآخرة، فكلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة أصلُه العلمُ؛ ذكره القرافيُّ في «الفروق».

قال: (وجُنَّة العبدِ مِن شرور النَّشأتين)؛ أي وقايةُ العبد مِنَ الشَّرِّ الكائنِ في النَّشأة الأولىٰ في الدُّنيا، والنَّشأة الآخرةِ يوم القيامة.

والجُنَّة: اسمٌ لما يُتَّقىٰ ويُسْتَتَر به.

ثمَّ قال **في بيان فضيلة العلم**: (به تحيا القلوب وتَسْلَم، وتطمئنُّ النُّفوس وتُحكَم)، فإنَّ ممَّا يُطْلَب تحصيلُه من الأحوال القلبيَّة: سلامةُ القلبِ؛ لاختصاص القلب السَّليم بالنَّجاة يوم القيامة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٩].

ومفتاح سلامة القلبِ، وسُلَّم الوصول إليه، هو بالعلم الواردِ في الوحي.

وبالعلم حياةُ القلوب؛ فإنَّ العلمَ مِن أعظم مشاهد ذِكْر الله، وفي «الصَّحيحين» واللَّفظ للبخاريِّ مِن حديث أبي موسىٰ الأشعريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ؛ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**».

وأصل (الذِّكر): حضور الله وإعظامُه بالقلبِ واللِّسان، أو هما معًا.

ومن أعظم سُبُله: طلب العلم.

قال عطاءُ بنُ أبي رَبَاحٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «مجلسٌ تتعلَّم فيه الحلالَ والحرامَ مِن ذِكْر الله».

ومِن فضلِه: ما ذكره بقوله: (وتطمئنُّ النُّفوس وتُحكَم)؛ لِمَا تقدَّم مِن كونِ العلم من أعظم مشاهدِ ذكر الله.

وقد قال الله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨]، فالعلم النَّافع يُورِث القلوبَ طمأنينةً وسكينةً.

وقوله: (وتُحكَم)؛ أي تُضبَط حركاتُها في مراداتِها، فلا تتوجَّه القلوب الَّتي استولىٰ عليها العلم النَّافع إلَّا إلىٰ ما يحبُّه الله ويرضاه.

فمتىٰ صارت القلوب معمورةً بالعلم، فحالها كما قال: (فَمَنْ وعىٰ قلبُه العلم النَّافع ذاقَ حلاوة الأُنسِ بالله، ووجد لذَّة طاعتِه والتماسِ رضاه).

ثمَّ قال: (فمبتدأُ طلبِه مِنَ القلوب)؛ لأنَّ أصلَ الحركةِ والإرادةِ هو القلبُ.

قال: (وجميلُ أثرِه إليها يرجِعُ ويَؤوب)؛ أي حُسن عاقبةِ العلمِ وعظيم منفعتِه يَرجعُ إلىٰ القلب ويعودُ إليه.

(قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت:٤٩])؛ فالصَّدرُ من الإنسان محلُّ العلمِ، وموقعُه منه: في قلبِه، ومستَقَرُّه من القلب: الفؤادُ، فإنَّ الفؤادَ للقلب بمنزلة اللُّبِّ للثَّمرة.

قال: (وللعلم آلةٌ تُقرِّب نَوَالَه)؛ أي حصولَه، (وتذلِّل صعابَه).

والنَّاعِتُون تلكَ الآلةَ مختلفون في الألفاظ الَّتي يُؤدُّون بِها عن معانٍ مشتركةٍ، **أجمَعُها**: (ما ساقه الماورديُّ) - من فقهاء الشَّافعيَّة - (في) كتابه («أدب الدُّنيا والدِّين»، وقد جعلَها تسعةَ أمورٍ - مع ما يلاحظ المتعلِّمَ منَ التَّوفيق، ويُمَدُّ به من المعونةِ -).

فتلك الأمور التِّسعة لا تنفع العبدَ إلَّا مع إحاطتِها بأمرين:

❁ **أحدهما**: توفيق الله للعبد.

❁ **والآخر**: استعانة العبد بالله.

وحقيقة (التَّوفيق): تيسيرُ العبد لليسرىٰ.

وحقيقة (الاستعانة): طلبُ العبد منَ الله الوصول إلىٰ المقصود.

فالعبد مفتقِرٌ إلىٰ توفيق الله في تحصيلِ مراداته، وتحقيقِ مطلوباتِه، ونيلِ مقاصدِه، وأعظمُها العلمُ.

والعروة الوثقىٰ في التَّمكين منها: دوامُ استعانته بالله عَزَّوَجَلَّ، فالنَّفس تعجَز عن دَرْك مطلوباتِها، وحَوْزِ مقصوداتِها، ونيلِ مراداتِها؛ إلَّا بدوام الاستعانة باللهِ.

فإنَّ مَنْ أعانه اللهُ انقلبَ ضعفُه قُوَّةً، وعجزُه قُدْرَةً، فالنَّفس مطبوعةٌ علىٰ النَّقصِ، ولا تكميلَ لها إلَّا بعون اللهِ العبدَ في ذلكَ.

ثمَّ سرد الأمور التِّسعةَ الَّتي ذكرها الماورديُّ، فقال:

(الأوَّل: العقلُ الَّذي به تُدرَك حقائق الأمور).

(والثَّاني: الفِطنة) - أيِ النَّباهة - (الَّتي يَتصوَّرُ بِها غوامضَ العلوم)؛ أي ما دقَّ منها.

فإنَّ مراتبَ المعلوماتِ متفاوتةٌ، فمنها غوامضُ لا تُدرَك إلَّا بتحقيق الفِكْر، وإجالةِ النَّظَرِ.

والآلة الممكِّنة منها: حصول الفطنة للعبدِ؛ بأن يكون يَقِظًا، نبيهًا، قويَّ الالتفاتِ إلىٰ أغوارِ العلم.

(والثَّالث: الذَّكاء الَّذي يستقرُّ به حفظُ ما تصوَّره، وفهمُ ما علمَه)؛ فإنَّ العقول تتفاوت في ضبط ما يُلقىٰ فيها مِنَ العلم، فبقاء محفوظِه، وجودة فهمِه؛ بحسب ما يُؤْتيه الله عَزَّوَجَلَّ من الذَّكاء.

ومدارُ العلم علىٰ الحفظ والفهم؛ ذكره ابن تيمية الحفيدُ وغيره.

وهاتان القوَّتان تُمِدَّان ملتمسَ العلم بالنَّفع التَّامِّ متىٰ أحسنَ اقترانَ إحداهُما بالأخرىٰ، بإعطاءِ كلِّ قوَّةٍ حقَّها، وإعمالِها في أمَدِها، فمتىٰ غلَّب إحدىٰ القوَّتين علىٰ الأخرىٰ أضرَّ بِها، فمَنْ أفرغَ وَسْعَه في الحفظ مع إهمال الفهم ضعُفت قوَّة فهمه، ومَنْ اعتنىٰ بالفهم معَ إهمالِ الحفظ أضرَّ بحفظهِ.

فالجادَّة الواقية من الضَّعف في إحدىٰ القوَّتين: حُسن المقارنة بينهما بإعمال كلٍّ في أَمَدِها ومجالها.

ثمَّ قال: (والرَّابع: الشَّهوة الَّتي يدوم بِها الطَّلب، ولا يُسرِع إليها المَلَل)؛ أي قوَّة المحبَّة للعلم.

فمَنْ قويتْ محبَّته للعلمِ، وتمكَّنت منه؛ لم يزل من طلب العلم في ازديادٍ، ولم يقعد عنه إلىٰ توانٍ وكسلٍ.

وبمحبَّة العلمِ يقوىٰ العلمُ في الفؤاد.

قيلَ لابن المباركِ: كيف تحفظُ؟، فقال: «إنَّما هو إذا اشتهيتُ شيئًا حفظتُه»؛ أي إنَّما أنا في الحفظ أنِّي إذا اشتهيتُ شيئًا، ووجدتُ محبَّةً له في قلبي؛ توَجَّه إليه قلبي فتَمَكَّن منه.

وسُئل أبو عبد الله البخاريُّ عن دواءِ الحفظ، فقال: «لا أجدُ أنفعَ للرَّجل من نَهمةِ الطَّلب، وإدمانِ النَّظر في الكتب».

فقوله: (من نَهمة الطَّلب)؛ أي محبَّته، واستيلائه علىٰ القلبِ، فيغدو معه صاحبه ويروح، لا ينفكُّ منه في لحظةٍ من لحظاتِه، ولا يزهد فيه وقتًا من أوقاته.

ثمَّ قال: (والخامس: الاكتفاء بمادَّةٍ تغنيه عن كُلَفِ الطَّلب)؛ **والمراد بـ(المادَّة)**: المالُ، و(**كُلَف الطَّلب**): حوائجُه الَّتي تُتكلَّف فيه.

ثمَّ قال: (والسَّادس: الفراغ الَّذي يكون معه التَّوفُّر، ويحصل به الاستكثار)؛ أي يحصل معه جمعُ القلبِ علىٰ العلمِ، فإنَّ المشغول قلبُه بغير العلم يتعطَّل عن نيلِه، ويضعفُ في سيره.

قال: (ويحصل به الاستكثار)، فإنَّ العلم بحرٌ لا غايةَ له، ولا يتهيَّأ الازديادُ منه إلَّا بالفراغ.

وليس يلزمُ أنَّ العلم لا يُدرَك إلَّا به، لكنَّه من أعظم الآلة الَّتي تُيَسِّر أخذَه، فإنِ اجتمَعَ التَّفرُّغ للعلم، وجدَّ ملتمسُه واجتهد؛ أمكنه أن ينال منه مقصودَه.

والمراد بـ(الفراغ): حصول السَّعَة في الزَّمان لهُ، لا البَطَالةُ، فإنَّ البَطالة الَّتي هي تَخَلِّي العبدِ من الشَّواغل، ربَّما منعته من العلم.

فكم مِن مُلتمسٍ للعلمِ يجدُ فراغًا يَقلِبُه بطالةً؛ بتأجيل أخذِه العلمَ، والتَّسويفِ فيه، وطولِ الأمل، فتراه يَحْفَلُ بِسَعةٍ في وقتِه، وقوَّةٍ في صحَّته، فيأخذ نفسَه بالهُونِ، ويقولُ: ما لم أحفظْه اليوم أحفظُه غدًا، وما لم أقرأه اليومَ أقرأُه غدًا، حتَّىٰ تذهب به الأيَّام فتزدادُ بطَالَته، وتقوىٰ عَطَالَتُهُ، حتَّىٰ ينقطعَ بسبب ذلك عن العلم.

ثمَّ قال: (والسَّابع: عدم القواطع المذهلة؛ مِن همومٍ، وأشغالٍ، وأمراضٍ)؛ **والقواطع**: اسمٌ للحوادث الخارجيَّة الَّتي تَعْرِض للنَّفس فتمنعها مقصودَها، وتحولُ بينها وبين مأمولِها؛ كالهموم، والأشغال، والأمراض.

ثمَّ قال: (والثَّامن: طولُ العمر، واتِّساع المدَّة؛ لينتهيَ بالاستكثار إلىٰ مراتب الكمال)؛ فإنَّ العلم يحتاج إلىٰ زمنٍ مديدٍ، وجُهدٍ جَهيدٍ، ولا يُنَال في مدَّةِ يومٍ ويومين، وشهرٍ وشهرين، وسنةٍ وسنتين؛ بلِ العلمُ الكاملُ الوافِرِ الَّذي ينفعُ صاحبَه، وينتفع به النَّاس، يحتاج إلىٰ إنفاقِ قدرٍ كبيرٍ من عمرِه فيه، فإذا أفرغ فيه مدَّةً طويلةً من عمرِه؛ ظهر نفعُه نفسَه بالعلم عليه، وانتفعَ به النَّاس.

ولمَّا كان العلم كثيرًا، والعمر قصيرًا؛ عظُمت وصيَّة أهله بتخيُّر ما ينفع منه، فإنَّ العلم أوسع من أعمارنا.

وممَّا يُيَسِّر للعبد حصولَ مقصودِه منه: أن يتخيَّر أنفعَه، ويُحسِنَ السَّير في جادَّته، ويترقَّىٰ في درجاته ونُقَلِه وفقَ ما نَعَتَهُ أهلُه العارفون به.

وأمَّا الخبطُ في ذلك فَبِهِ يضيع عمُرٌ كثيرٌ في شيءٍ قليلٍ؛ فتقِلُّ منفعتُه من العلم.

ثمَّ قال: (والتَّاسع: الظَّفَرُ بعالمٍ سمحٍ بعلمِه)؛ أي الفوزُ بالتَّوفيق إلىٰ الأخذ عن عالمٍ سمحٍ بعلمِه؛ أي باذلٍ له، متفضِّلٍ به علىٰ ملتمسيهِ، فيُنفِقُ مِن وقتِه وقوَّته من تعليمِهم ما يُعِينُهم علىٰ تحصيل العلم.

قال: (متَأَنٍّ في تعليمه)؛ أي ملازمٍ الأناةَ في تعليمِ المتعلِّمين؛ بتدريجهم شيئًا فشيئًا، وحملِهم علىٰ ما ينفعهم، وترقيتِهم في العلم مِن صغاره إلىٰ كباره، مع العلم بطرائق التَّعليم، ومسالكِ التَّفهيم، والإحسان في تأديبِهم، ومعرفة طرائق ردِّ نفوسهم إلىٰ الحقِّ، وتعريفها بالهدىٰ، ودَلالتها علىٰ الرُّشد، والصَّبْرِ علىٰ ذلك.

فهذه الأمور التِّسعة هي من أعظم الآلة الَّتي يُنال بِها العلمْ.

فينبغي أن يتحرَّىٰ ملتمسُ العلم وجودَ هذه الأمور في طلبِه، وأن يبتغي الأخذ بِها، ويجتهدَ في ضمِّ أوفرِ نصيبٍ منها إليه، فإنَّها متىٰ كمُلت عنده قويَ أخذُه العلمَ وحَسُنَ.

وبقدر نقصِها يحصلُ النَّقص عنده، فإذا ضعُف ذكاؤُه، أو فطنته، أو عقله، أو مادَّته، أو فراغه، أو كثُرت قواطعُه، أو غير ذلك من الأمور المذكورة في كلامه؛ حصل له فوْتُ العلم بقدرِ ذلك النَّقصِ.

وأنفعُ شيءٍ للمتعلِّمين: استرشادُهم بمَنْ يهديهم إلىٰ أخذ العلم.

فإنَّ العلم له جادَّةٌ مأمونَةٌ، وطريقٌ مسلوكةٌ، مَنْ كان سيرُه فيها غَنِم وسَلِم، ومَنْ أخذ بالسَّير دونَها هاهنا وهناك فاته شيءٌ كثيرٌ مِن عمره في شيءٍ قليلٍ مِن علمه، وربَّما انقطع عن العلمِ.

ومِن الآفات المؤدِّية إلىٰ ضعف العلم والانقطاع عنه: عدمُ حُسنِ أخذِه؛ كتركِ إعمال هذه الأمور التِّسعة، وضعفِ فهمِ مقاصدِها، والعملِ بحقائقها.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلم أنَّ العلمَ ميراثُ النُّبوَّة، وهي اصطفاءٌ منَ الله لِمَنْ شاء من رُسُلِه؛ ليُبَلِّغوا دينه وشرعَه، وصفوتُه في هذه الأمَّة منَ الأنبياء محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أدَّىٰ الأمانة، وبلَّغ الرسالة، فهُدِي به الخلقُ للحقِّ، وعَلِمُوا ما لهم وما عليهم، وما أُعِدَّ من الجزاء لمَنْ آمن ولمَنْ كفر.

وقد جعل الله له وُرَّاثًا، هُم حملة الدِّين منَ العلماء وشيوخ العلمِ، فمَنْ رام علمَ الرِّسالة المحمَّديَّة والدِّيانة الإسلاميَّة أخذَه عنهم دون غيرهِم، وإن عظُم قدْرُه في الخلق؛ كالملوك والكُبَراء والأغنياء.

فتُؤخَذ أصول الفنون حفظًا وفهمًا عن شيخٍ عارفٍ متَّصفٍ بوصفين:

أحدهما: الأهليَّة في الفنِّ، بتمكُّنه في النَّفس.

والآخر: النُّصح، وحُسن المعرفة بطرق التَّعليم.

فمَنِ اجتمعا فيه مِنَ الشُّيوخ فهو أولىٰ بالأخذِ عنه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه.

فاحرِصْ علىٰ مَنْ تقدَّم وصفُه، فإنْ لم تجدْه في بلدكَ فارتحِلْ، فإنَّ الرِّحلةَ في طلب العلمِ والدِّين؛ مِن سَنَن عبادِ الله المُؤمنين.



قَالَ الشَّارِحُ وفّقَهُ اللهُ:

عقد المصنِّف فصلًا آخرَ ينصح فيه مَنِ التمس العلم وابتغىٰ نواله بأنَّ (العلم ميراث النُّبوَّة)؛ فالنُّبوَّة طُوِيتْ بختمِها بمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا نبيَّ بعده، والعلمُ هو البقيَّة الباقية منها، إذِ العلمُ النَّافع مداره علىٰ الوحي النَّازل، من كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والنُّبوَّة (اصطفاءٌ من الله) - أي اختيارٌ منه - (لِمَنْ شاء من رسلِه؛ ليُبَلِّغوا دينه وشرعَه، وصفوتُه في هذه الأمَّة من الأنبياء محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فهو المختار المجتبىٰ نبيًّا من هذه الأمَّة.

وفي «مسند أحمدَ» من حديث عوفِ بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنَا النَّبِيُّ الْمُصْطَفَىٰ**».

ثمَّ قال: (وقد أدَّىٰ الأمانة، وبلَّغ الرسالة، فهُدِي به الخلقُ للحقِّ، وعَلِمُوا ما لهم وما عليهم، وما أُعِدَّ من الجزاء لمَنْ آمن ولمَنْ كفر)، وقد مات صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينُه باقٍ.

(وقد جعل الله له وُرَّاثًا)؛ أي مَنْ يقوم علىٰ ما بقي من الوحي بيننَا من كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهؤلاء الورَّاث (هُم حملة الدِّين مِنَ العلماء وشيوخ العلمِ، فمَنْ رام علمَ الرِّسالة المحمَّديَّة والدِّيانة الإسلاميَّة أخذَه عنهم دون غيرِهم)؛ فنيْل العلم موكولٌ إلىٰ تلقِّيه عن شيوخه.

وعند أبي داودَ من حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ**»، وإسنادُه صحيحٌ.

والعبرة بعموم الخطاب، لا بخصوص المخاطَبِ.

فنيلُ العلم في هذه الأمَّة يكونُ بتلقِّيه؛ فيأخذه الخَلَفُ عنِ السَّلَفِ، فلا يُنال إلَّا بحملِه عن شيوخِه، وهي خَصِيصَةٌ من خصائص الأمَّة، فالعلم فيها موروثٌ مُتلقَّىٰ؛ بسطه الشَّاطبي في إحدىٰ مقدِّماته بين يدي كتابه «الموافقات».

وما عدا شيوخ العلم فإنَّ العلم لا يُؤخَذ عنهم، (وإن عظُم قدْرُ أولئك في الخلق؛ كالملوك والكُبَراء والأغنياء)؛ فإنَّ هؤلاء مِن أجناس المعظَّمين عند النَّاس، وليسُوا محلًّا لأخذ العلمِ عندهم.

وأولىٰ منهم مَنْ كان في قلوب النَّاس أقلَّ قدرًا؛ كالأدباء، أو الشُّعراء، أو الخُطَبَاء، أوِ المثقَّفين، أو الصَّحفيِّين، أو غيرهم، فإنَّ هؤلاء ليسوا محلًّا لأخذ العلم عنهم.

ثمَّ أرشد المصنِّف إلىٰ **صفة أخذ العلم**، فقال: (فتُؤخذ أصولُ الفنون حفظًا وفهمًا)؛ فبابُ العلم هو أصولُه منَ الكتب المعتمدة في تلقِّيه في كلِّ فنٍّ، فإنَّ كلَّ فنٍّ من فنون العلم ونوعٍ من أنواعه يقوم علىٰ أصولٍ معتمدَةٍ منه.

ففتحُ بابِ عِلْمٍ ما: هو في الأخذ بأصولِه المعتمدة من التَّصانيف حفظًا وفهمًا، فيُعْمِلُ فيها ملتمسُ العلمِ آلةَ الحفظِ والفهمِ نحتًا، فإذا أتىٰ عليها حفظًا وفهمًا استقرَّ هذا العلمُ في قلبه.

ويُعِينُه علىٰ أخذ أصولِ الفنِّ أخذًا صحيحًا المذكورُ في قوله: (عن شيخٍ عارفٍ متَّصفٍ بوصفين)؛ فسبيل حُسنِ أخذِكَ أصولَ العلم يكون بتلقِّيه عن شيخٍ من أهله؛ لأنَّ العلم لا يُؤْخَذ إلَّا عن شيوخه.

ويتَّصف المأخوذ عنه من الشُّيوخ بوصفين:

(أحدهما: الأهليَّة في الفنِّ)؛ أي حصوُل مَلَكَتِه عند المنتسب إليه، (بتمكُّنه في النَّفس)؛ أي بحيث يكون طبعًا ملازمًا نفسه، لا يتكلَّف تعاطيه بالقعودِ عن تعليمِه

وتفهيمِه إلَّا مع حصولِ مشقَّةٍ في تفهُّمِه، فمَنْ لم يكنِ العلمُ له طبعًا فلا أهليَّة له فيه، وإن كان مِن أهلِه.

فإنَّ الناس متفاوتون في حظوظهم من العلم، وأكملُ أهلِه همُ الَّذين انطبعتْ فيهم صورة العلم فصارتْ لازمةً لنفوسهم، راسخةً فيها، وهذا هو الَّذي يُسمَّىٰ (ملكةً).

فإنَّ **الملكةَ**: اسمٌ للهيئة الرَّاسخة في النَّفس.

قال: (والآخر: النُّصح، وحُسن المعرفة بطرق التَّعليم)، فيكون الشَّيخ المعلِّم ناصحًا المتعلِّمين، لا يغرُّهم بما يضرُّهم، ولا يَحْمِلُهم علىٰ ما يريد به منفعتَه نفسَه، ولا يوافقهم فيما يبتغونَ إن كان غيرُه أنفعَ لهم منه؛ بل يتحرَّىٰ حملَهم علىٰ النَّافع لهم، وإن كان نفعُه له قليلًا في الصُّورة الظَّاهرة.

وأمَّا في الحقيقة الباطنة؛ فإنَّ مَنْ نصح للخلق فتح الله له أبواب العلم، وهيَّأ أسباب الفهم.

ومَنْ لا يبالي في صفة تعليم النَّاس، فيأخذهم كيفما شاءَ من رغبتِه أو هواه، فإنَّه يُحبَس عنه من فضل الله في العلم، بقدر ما حَبَسَه منه علىٰ النَّاس، فالَّذي يُغريه في تعليم النَّاس ابتغاءُ الاطِّلاع علىٰ كتابٍ جديدٍ يَضِيقُ وقتُه عن قراءتِه، فيأمر المتعلِّمين بأن يقرؤُوه عليه ليعمرَ وقته معهم بقراءته؛ فإنَّه غير ناصحٍ لهم.

أو مَنْ يَتُوقُ إلىٰ تجديدِ مقرُوئِه معهم من العلم، ويأْنَف مِن إعادة أصول العلم معهم؛ بحجَّة أنَّه تقدَّم تعليمُها، وقُضِي مِن تفهيمها، فلا نفع في إعادتِها؛ فهذا يضرُّهم أيضًا.

فإنَّ إعادة الأصول المعتمدة في أبواب العلم أنفعُ له ولهم؛ فإنَّ أصول العلم هي دواوينُه الجامعة، وتلك الدَّواوين إذا أوْعَبْتَ فيها فِكرًا، وأدمنتَ فيها نظرًا؛ فُتِح لك من

أبواب الفهم والإدراكِ ما لم يكن لك منها من قبلُ، وهو أنفعُ للمتعلِّمين؛ لأنَّ أخذ العلم لا يكون إلَّا بأصوله.

فالَّذي يُقرِئ تلك الأصولَ لزُمْرَةٍ من أصحابه، ويكتفي بِها مرَّةً واحدةً، ثمَّ لا يزال يتنقَّل بين كتب العلم بحجَّة طلبِ كتابٍ جديدٍ منه؛ يُضْعِفُ فهمَه الأصولَ، ويُضِرُّ بمَنْ تجدَّد من أصحابِه، ولا يتخرَّج عليه أحدٌ.

فتجد أمثالَ هؤلاءِ إذا أقرأَ «الأربعين النَّوويَّة»، فالتُمِسُ منه بعدُ إقراءَها؛ قال: سبق منَّا إقراؤُها، لكن هاتُوا «الأربعين المُنذِريَّة»، فإذا التُمِس منه بعدُ في مقام آخر إقراءَ «الأربعين النَّوويَّة»؛ قال: قد سبق إقراؤها، فهاتوا «الأربعين الطَّائيَّة»، فلا يزال يتنقَّل بين أنواع الأربعينيَّات بما يظنُّ هو أنَّه يزدادُ به علمًا، وهو في الحقيقة يُضيِّع معرفة أصول العلمِ في الحديث النَّبويِّ بتركه «الأربعين النَّوويَّة»، وهؤلاء الَّذين يتجدَّدون معه من الطَّلبة فيما يُقرأُ من هذه الكتبِ يضعفُ انتفاعُهم.

ولم تكن هذه من عادة أهل العلم، بل كانت عادة أهل العلم في كلِّ قُطرٍ: لزومُ أصولٍ يكرِّرونَها للطَّلبة مرَّةً بعد مرَّةٍ، وإذا تجدَّد طالبٌ لم يجدِّدوا معه ما ينفعُهم هم، بل جعلوا له ما ينفعه هو.

وفي أخبار شيخنا ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أنَّه أَقْرَأَ كتاب «ثلاثة الأصول» في مدينةِ الدِّلَم -وكانتْ هي قاعدتُه في نفعِ النَّاس أعظمَ مِن غيرها -، أقرأَ هذا الكتاب أكثر من مائةِ مرَّةٍ.

وكانوا لا يَأْنَفُون مِن لزوم هذه الأصولِ، وإن أُشير إليهم بالتَّقدُّم في العلم، والإمامة فيه.

وفي ترجمة التَّاوديِّ بنِ سُودَةَ المُرِّيِّ - شارح البخاريِّ، مِن علماءِ المغرب -: أنَّه لم ينقطع عن إقراء «المقدمة الآجرَّاميَّة» حتَّىٰ موته، وكان يُقرئها للصِّغار مِن حَفَدَتِه.

فأهلُ العلم العارفون به، يَرَوْنَ انتفاعَ الخلقِ بأخذِهم بِهذه الأصول وحملِهم عليها أنصحُ لهم، فهم لا يزالون يُفْرِغُون وَسْعَهم فيما ينفع النَّاس نُصحًا لهم.

ويَقْرِنُون هذا بسلوك طُرُقِ التَّعليم الَّتي تنفع النَّاس، فإنَّ ملتمسِي العلم علىٰ درجاتٍ، وما ينفعُ هذا قد يضُرُّ ذاكَ، ومخاطبةُ المنتهي فيه غيرُ مخاطبة المتوسِّط، ومخاطبة المتوسِّط غيرُ مخاطبةِ المبتدئِ، وقد ينفع خواصَّ المتعلِّمين شيءٌ يضرُّ بعمومِهم.

فالتَّرقية في العلم تحتاج إلىٰ ذهنٍ وقَّادٍ، وفهمٍ جيِّدٍ؛ حتَّىٰ يُحمَل صاحب العلم علىٰ دقائقِه، ويُكشَف له عن غوامضِه، فإنَّ الإمعانَ في الدَّقائق والإغراقَ في الغوامضِ، يُضِرُّ المبتدئين، بخلاف أهل الانتهاء.

ولم يكن من عادة أهل العلم التَّسوية في كلِّ علمٍ وكتابٍ بين المتعلِّمين؛ بل عندهم من العلم ما يكون لجميع المتعلِّمين، وعندهم منه ما يُخَصُّ به آحادُهم.

ولا يُخَصُّون به لأجل مُؤانَسَتِهم، أو حُسنِ مفاكَهَتِهِم، أو نسبتِهم إليهم في عِرْقٍ مِن بيتٍ أو قبيلةٍ، أو كثرةِ مالِهم، أو عِظَمِ رئاستِهم وجَاهِهِم، وإنَّما يُخصُّون به لبلوغهم مرتبةً ساميةً في العلمِ تجعلُهم صالحين لأخذه.

وفي أخبار الشَّيخ حسَنِ بنِ مانعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه وفد علىٰ شيخ شيوخنا محمَّد بنِ إبراهيمَ آل الشَّيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتمسَ منه القراءةَ، فأذِن له في قراءة «ثلاثة الأصول»، فقال الشَّيخ حسنٌ: قد قرأتُها - أحسنَ الله إليك.

ومعنىٰ قولِهم فيما سلف في أصول العلم (قد قرأتُها)؛ أي حفظًا وفهمًا.

فقال له: فتقرأ في «كتاب التَّوحيد»، فقال: قد قرأتُه.

فقال له: تقرأُ في «العقيدة الواسطيَّة»، فقال: قد قرأتُها.

فقال له: تقرأُ في «زاد المستقنع»، فقال: قد قرأتُه.

فقال له: تقرأ في «بلوغ المرام»، فقال: قد قرأته.

فقال له الشَّيخ محمَّدٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متعجِّبًا: أين قرأتَ هذه الكتب؟، فقال: قرأتُها عند ابن عمِّي الشَّيخ محمَّدٍ بن عبد العزيز بن مانعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فقال له الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم - مداعبًا: أنتَ يا ولدي أولىٰ بالجلوس هنا - يعني في كرسي التَّعليم - مني.

ثمَّ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحدَ أربعةٍ يختصُّون بمجلسٍ مع الشَّيخ محمَّد بنِ إبراهيمَ، وخصَّه به لاكتمال قوَّته في العلم، واجتماعِ نفسه عليه.

فلا بدَّ مِن ملاحظة هذا في المتعلِّمين لمَنْ أراد نفعهم وتخريجهم.

وأمَّا مَنْ أراد أن يُرِيَهم معلوماتِه، وينشر لهم مُدْرَكَاتِه، ويَسْرُد عليهم محفوظاتِه، ويُبْدِي لهم ذكاءه؛ فهذا يضرُّهم أكثرَ مِن نَفْعِهم، ولا يتخرَّج عليه كبيرُ أحدٍ.

ثمَّ قال بعد: (فمَنِ اجتمعا) – أي الأهليَّة والنُّصح - (فيه من الشُّيوخ فهو أولىٰ بالأخذ عنه، وإن كان غيرُه أعلمَ منه)؛ فكثرةُ العلم ليست سبيلًا إلىٰ تخريج المتعلِّمين، لكنِ السَّبيل إلىٰ تخريجِهم هو وجودُ ملكةِ العلمِ، والنُّصح لهم.

ورُبَّ قليلِ العلم يتخرَّج به مَنْ ينفع النَّاس نفعًا كثيرًا، ورُبَّ كثيرِ العلم لا يتخرَّج به أحدٌ؛ لأنَّه لا يُحسِن التَّعليم، ولا يُتقنُ التَّفهيم، ولا يعرفُ التَّأديبَ، فلا يخرُج مِن بين يديه مَنْ يكون نافعًا منتفعًا، ومَنْ عرف أحوال النَّاس ومراتبَ أهلِه؛ أدرك هذا.

ثمَّ قال: (فاحرِصْ علىٰ مَنْ تقدَّم وصفُه، فإنْ لم تجدْه في بلدكَ فارتحِلْ)؛ أي إذا فقدتَ الشَّيخَ المعلِّمَ الموصوف بالوصفين السَّابقين، فارتحِلْ إلىٰ غير بلدك، (فإنَّ الرِّحلةَ في طلب العلمِ والدِّين؛ مِن سَنَن عبادِ الله المُؤمنين).

ولأبي بكرٍ الخطيبِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابٌ مُفرَدٌ في الرُّحلة في العلم، ودلائلُه متكاثرةٌ في الكتاب والسُّنَّة.

وممَّا ينبغي أن يغتَنِمَه ملتمسُ العلم: وصولُ المعلِّمين من الشُّيوخ إلىٰ بلدِه، فلَا يخلي نفسَه منَ الأخذ عنهم، ويسلُكُ في ذلك طرائِقَ متنوعِّةً، فمَنْ لم يجلسْ للتَّعليم اجتهدتَ في إجلاسِه للتَّعليم، ومَنْ عجزَ لضيقِ وقتِه عن إقراء كتابٍ مع الشَّرح والتَّوضيح، قُرِئَ عليه مع التَّنكيت والإفادة، ومَنْ لم يُقْدَر علىٰ قراءة شيءٍ معه بالتَّنكيت والإفادة، قُرِئ معه الكتاب بالضَّبط والتَّصحيح، ومَنْ لم يُقدَر معه علىٰ شيءٍ من القراءة، فلا أقلَّ من إلقاء أسئلةٍ في العلم عليه يضبِطُها المُلقي.

فبهذه الطَّرائق وأمثالِها؛ يمكن للمتعلِّم أن يقتبسَ أنوار العلم من أهله، مراعيًا أحوالهم.

فالشَّيخ الَّذي لا وقتَ عنده إذا وردَ علىٰ بلدٍ - لشغلِه بشيءٍ - يُقرَأ عليه الكتاب للتَّنكيت والإفادة، فيُسرَد عليه في وقتٍ قليلٍ، مع التماسِ إبانتِه عمَّا يَعسُر أو يحتاجُ إلىٰ تنبيهٍ فيه، فإن كان لا يقدِر علىٰ ذلك قُرِئ عليه الكتاب للتَّصحيح بضبطِ ألفاظِه، فإن لم يُقدَر علىٰ شيءٍ من ذلك، أُلقي عليه سؤالاتٌ في العلم تُضبَط عنه.

أمَّا أن يقدُم أهلُ العلم إلىٰ بلدٍ، ثمَّ لا تَجِدُ طلَّابَه يحفَلُون بِهم، بدعوىٰ أنَّهم مشغولون بالحجِّ أو بغيره؛ فهذا من العجزِ البَيِّن، وعدمِ حُسن أخذ العلم.

وقد قُرِئ علىٰ شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ مرَّةً متنٌ وهو يتناول الطَّعامَ؛ إذ كان مقصودُ القارئِ تصحيحُ المتنِ عليه؛ لأنَّ وقتَه يضيق عن شرحه بأيِّ لونٍ من الألوان المتقدِّمة للشَّرح، فلم يَحرِمْ ذلك المتعلِّم نفسَه من الانتفاع بالشَّيخ، ولو بعرضِ المتن عليه ليصحِّح له مبانيه، فيفوزَ بالقراءة عليه شرفًا، وبتصحيح المتن عليه غُنْمًا.

وإذا لم يمكنْ مثلُ هذا؛ أُلقِيَت عليه أسئلةٌ في أبواب العلمِ.

والسُّؤالات الحقيقةُ بالإلقاء علىٰ هؤلاءِ هي غوامضُ العلم، لا أن تعمدَ إلىٰ عالمٍ مشارٍ إليه بالعلمِ إذا ورد إلىٰ بلدك فتسأَلُه عن المسائل الواضحات، **فالسُّؤال لهم عن المسائل الواضحات؛ من الأمور الفاضحات في حقِّ طالب العلم.**

فلا يحسُن بطالبِ العلم أن يأتيَ إلىٰ هؤلاءِ فيسأل أحدَهم عن أنواع التَّوحيد مثلًا، أو حُكم الطَّهارة من الحدَث لمُريد الصَّلاة، أو غير ذلك من المسائل الواضحة في العلم، لكن يجتهد في رَصْدِ ما يُشكِل عليه من المسائل، فإذا لقيَه سأله عن تلك المسائل، فحفظ عنه جوابه؛ لشدَّة الحاجة إليه، فيحصل له هو به خيرٌ، ويحصل للنَّاس خيرٌ، ويبقَىٰ علمًا نافعًا للمعلِّم قد لا تجده في كتابٍ محفوظٍ عنه.

ومَنْ عرفَ العلم وأخَذَه؛ وجدَ هذا بيِّنًا في مزيدِ النَّفع للمتعلِّم.

ومن مُثُلِ ذلك: أنِّي سألتُ شيخنا ابن بازٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في مجلسِه في الطَّائف عن لفظةٍ في (قصَّة الأعمىٰ والأقرع والأبرص)، وفيها في حديث أبي هريرةَ في «الصَّحيحين» واللَّفظ للبخاريِّ: «**بَدَا للهِ**»، فقلتُ له: هل يُوصَف الله بالبداءة - والمراد بِها عند القائلين بِها من أهل السُّنَّة: ظهورُ العلم- أم لا يُوصَف؟

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَصِفُ الله بكلِّ ما وصف به نفسَه، وبما وصفه به رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ، وسكت رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تعيين القولِ بِهذه الصِّفة.

فمثلُ هذه المسألة قد لا تجدُها في المُقيَّدات عنه من التَّآليف، أو المحفوظات من المسموعات الصَّوتية.

واعتبِر هذا في أشياءَ تُشكِلُ عليك من العلم، لن تجدَ لها جوابًا إلَّا بسؤال هؤلاء، فإذا قيَّدتَ جوابَهم سترىٰ بعدَ سنين عددًا، أنَّه لا يُضبَط من العلم عنه فيها إلَّا ما سألته أنتَ عنه.

فيظهرُ افتقارُكَ أنتَ إلىٰ العلم، ويظهر حُسْنُ نفعِك للنَّاس فيه بما نقلتَ لهم من العلوم عن هؤلاء الفُحُول.

فينبغي أن يجتهدَ طالبُ العلم في هذا، وأن يسلكَ بنفسه السَّبيل الَّتي نَعَتْنَاها؛ لأنَّها جادَّة العلمِ الَّتي تُوصل إليه.

والعلمُ - بحمد الله - سهلٌ ميسورٌ علىٰ مَنْ سلك طريقَه، ومَنْ أخذَ في غير طريقِه فإنَّه لا يزالُ يتقلَّب في مشاقِّه، حتَّىٰ ينقطع عنه، أو يصيبَ منه قدرًا قليلًا.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلمْ أنَّ فنونَ العلم متعدِّدةٌ، وألوانَه متنوِّعةٌ، وينبغي أن يكون هَمُّ الطَّالب الأعظمَ: تحصيلُ علومِ المقاصد، والتَّفقُّه في الوحيين، مجتهدًا في استكشاف مَداركِها، والنَّهْلِ من مواردها، وتوسعةِ الكلام وتحقيقِه فيها، فبه تجودُ مَلَكة العلمِ في النَّفس وتقوىٰ.

وأمَّا العلوم الآليَّة المُوصلَة إليها - كعلوم العربيَّة، والأصول -؛ فلا يشتغل بِها إلَّا بقدر ما يقف به علىٰ مقاصد العلمِ المنظور فيهِ، دون إدامة نظرٍ تُبلِّغُه غَوْرَه، فإنَّ العلوم الآليَّة كثيرةُ العَدد، ثقيلة العُدَد؛ لطولِها وكثرةِ فروعها، وهي للعلم بمنزلة الملح للطَّعام، إن زاد ساء وإن نقصَ ساءَ، وأعظمُ المصاب بِها إن صارت حائلًا دون العلوم الأصليَّة.

ولا يتأتَّىٰ للطَّالب الظَّفَرُ بما يُؤَمِّله من علومِ المقاصدِ والوسائلِ حتَّىٰ يكون:

_ نَهَّازًا للفرص.

_ مبتدئًا للعلم من أوَّله.

_ آتِيًا له من مَدْخَلِه.

_ مُنصرفًا عن التَّشاغل بطلب ما لا يضرُّه جهلُه.

_ مُلِحًّا في ابتغاءِ دَرْكِ ما استصعب عليه، غير مُهْمِلٍ له.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ختم المصنِّف - وفقه الله - مقالتَه عقد المصنِّف - وفَّقه الله - فصلاً آخرَ ناصحًا ملتمسَ العلم (أنَّ فنونَ العلم متعدِّدةٌ، وألوانَه متنوِّعةٌ، وينبغي أن يكون هَمُّ الطَّالب الأعظمَ: تحصيلُ علوم المقاصد)؛ فإنَّ العلوم المقصودة لذاتِها مقدَّمةٌ علىٰ غيرِها.

وتلك العلوم تنتهي إلىٰ (التَّفقُّه في الوحيين)؛ فهو الَّذي ينبغي أن يُفرِغَ فيه ملتمسُ العلم وَسعه، (مجتهدًا في استكشاف مَداركِها، والنَّهْلِ من مواردها، وتوسعةِ الكلام وتحقيقِه فيها، فبه تجودُ مَلَكة العلمِ في النَّفس وتقوىٰ).

أمَّا مقابِلُها منَ (العلوم الآليَّة المُوصلة إليها)، فيختصُّ الاشتغال بِها (بقَدْرِ ما تُوقِفُ علىٰ مقاصد العلم، دون إدامة نظرٍ تُبلِّغُه غوْرَه)؛ أي غايتَه ونِهايته.

فالاشتغال بعلوم الغاية من المقاصد قرآنًا وسُنَّةً يُنْفَقُ فيها أعظم الوقت ويُجعَل لها، ولا يتناهىٰ الاشتغال بِها إلىٰ حدٍّ يقف دونه الطَّالب.

أمَّا العلوم الآليَّة فالاشتغال بما يُؤْخَذ منها يكون علىٰ قدر الحاجة، بما يُعِينُ علىٰ فهم العلوم الأصليَّة، وعلَّله بقوله: (فإنَّ العلوم الآليَّة كثيرةُ العَدد، ثقيلة العُدَد؛ لطولِها وكثرة فروعها)؛ فإنَّك لو أردتَ أن تسبُرَ غورَ علم الأصول، أو علم النَّحو، أو علم البلاغة، أو غيرها من العلوم الآليَّة؛ احتجتَ إلىٰ مدَّةٍ مديدةٍ.

فمثلًا: (العِلَل النَّحويَّة) علمٌ طويلُ الذَّرْع، لكن أكثرُه مُتكلَّفٌ لا حاجةَ إليه، فإذا تمادىٰ ملتمس النَّحو في الغَوْرِ في العلم حتَّىٰ أراد الإمعانَ في علم عِلَلِه ضاع عليه عمرٌ كثير فيما غيره أولىٰ منه، فيتَّخذ مِن تلك العلوم ما يُعِين علىٰ فهْم علوم الغاية.

وأمَّا علوم الآلة؛ فالأمر فيها كما قال: (وهي للعلم بمنزلة الملح للطَّعام، إن زاد ساء وإن نقص ساءَ)، والانتفاعُ به يكون بحال الاعتدال.

قال: (وأعظمُ المصاب بِها إن صارت حائلًا دون العلوم الأصليَّة)؛ بأن يجعلَ فيها ملتمسُ العلم وافرَ قوَّته، وزهرةَ عُمُرِه، ونَضَارةَ شبابه، حتَّىٰ إذا تناهىٰ إلىٰ العلوم الأصليَّة أقبل عليها كليلًا ضعيف الهمَّة، قد ذهبت عنه قوَّةُ الشَّباب ومَيْعَتُه، فيكون أخذُه للعلوم الأصليَّة أخذَ الحاسِر الأسير، العاجِل الكسير، فيكون حظُّه من العلم الوافر النَّافع علىٰ الحقيقة قليلًا.

واعتبِر هذا في بلدانٍ من بلدان الإسلامِ رأيناها؛ يُنْفِق فيها المتعلِّم عشر سنواتٍ طولَ يومِهِ اشتغالًا كاملًا في علم النَّحو والصَّرف والمنطق والفلسفة، فتجدُ أحدَهم آيةً في هذه العلوم، لكن منتهىٰ علمِه إليها، وإدراكُه لعلوم المقاصد من الكتاب والسُّنَّة ضعيفٌ جدًّا.

ومنشأُ غلط هؤلاء هو تجاريهم مع العلوم الآليَّة، ورغبتُهم في بلوغ أغْوَارِها، حتَّىٰ صار غوْرُهم فيها حائلًا دون أخذِهم علومَ المقاصدِ، وتوسيعِ القولِ فيها، واستكشافِ مداركها.

ثمَّ قال: (ولا يتأتَّىٰ للطَّالب الظَّفَرُ بما يُؤَمِّله من علوم المقاصد والوسائل حتَّىٰ يكون: نَهَّازًا للفرص)؛ أي مغتنِمًا، حَسَنَ الأخذِ لِمَا لَاحَ له منها؛ فإذا لاحت له فرصةُ أخذٍ وتَلَقٍّي اجتهدَ في اقتناصها أكثر مِن اجتهاد مُقتنِصِ الصَّيد، فإنَّ العلم أفضل الصَّيد، وأكملُ الأخذ له يكون بانتهازِ كلِّ فرصةٍ تَلُوح من الفرص الَّتي تتهيَّأ للعبد.

فإذا صار هذا أصلًا عندك؛ رأيتَ قدْرَ ما يلوحُ لك منَ الفُرص، فإنَّ من القادمين إلىٰ السَّفر علىٰ الطَّائرات، أو الآيِبينَ إلىٰ بلدانِهم، يحصل لهم فرصٌ بوجود شيوخ العلم من بلدانِهم في تلك الطَّائرات، ممَّنْ يَعْسُر عليه الاجتماع به لبُعدِ جِهَتِه، ويمكنه انتهازُ الانتفاع منه بالجلوس إليه، والقراءة عليه، أو إلقاء أسئلةٍ في العلم.

وكذا إذا حضر أحدٌ من أهل العلم إلىٰ بلدٍ لإلقاء محاضرة مثلًا، فإنَّ العادة غالبًا أنَّه يتوفَّر عنده وقتٌ أوسعُ من تلك المحاضرةِ، لكن يبقىٰ الشَّأنُ في كيفيَّة انتهاز الفرص الَّتي تلوح، بالقراءة عليه، أو إلقاء أسئلةٍ في العلم يُؤخَذ جوابه منها.

وأعرِفُ مَنْ كان يعمَد إلىٰ هؤلاء فيجد عندهم وقتًا لا يَعتَذِرون منه أبدًا، وهو وقتُ خروجهم إلىٰ الصَّلاة ورجوعِهم منها، فإنَّ هذا وقتٌ غير مشغولٍ عادةً، ويمكن لمنْ كان نَهَّازًا للفرص أن ينتفع منه؛ إمَّا بالقراءة حينئذٍ، أو بإلقاء أسئلةٍ يُقيِّد أجوبتَها عنه.

قال: (مبتدئًا للعلم من أوَّله)؛ أي آخِذًا للعلم من أوَّله، وهي صغارُ مسائله، فيترقَّىٰ في مسائله شيئًا فشيئًا.

(آتيًا له من مَدْخله)؛ وهي الأصول المعتمدة في علومِه، فإنَّ أصول العلومِ مداخلُها، وإذا رُمتَ الدُّخول من غيرهَا لم تُمَكَّن منه.

(منصرفًا عن التَّشاغل بطلب ما لا يضرُّ جهله)، فإنَّ العلم كثيرٌ، ومنَ العقلِ فيه أن لا تشتغل بشيءٍ لا يضرُّك الجهلُ به.

(مُلِحًّا) - أي مدمنًا الطَّلبَ - (في ابتغاءِ دَرْكِ ما استصعب عليه، غير مُهْمِلٍ له)؛ فإنَّ أخذَ العلم يكون بمحاولةِ جميعِه، لا بمعاناة بعضِه وترْك بعضِه، فإذا عَسُر عليكَ فهْم شيءٍ مِن مسائلِه فكرِّر النَّظر فيه، وأعِدِ الفِكْر في تأمُّلِه، وقلِّبْ صُنُوفَ الإدراك لِوَعْيِه، وراجِعْ مَنْ شئتَ مِن شيوخ العلم أو كتبه لتفهمه، (غيرَ مُهْمِلٍ له)، فإنَّه إذا كانت حالُك حالَ مَنْ إذا عَسُر عليه شيءٌ من العلم تركه، لم يكن فيما أدركه منه كبيرُ نفعٍ.

فإنَّ **المَلَكَاتِ تقوىٰ بالمُزَاوَلات**؛ ذكره ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فملكتُكَ في العلم تقوىٰ بإعادتك النَّظر مرَّةً بعد مرَّةٍ فيما يغمض من مسائله، ويخفىٰ من معانيه، حتَّىٰ يَتَفتَّق ذهنُك عن فهمها، ويمتلئُ قلبُك بإدراكها.

وفي أخبار شيخِ شيوخنا محمَّد الأمينِ بنِ محمَّد المختارِ الجَكَنِيِّ الشِّنقيطيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه إبَّان طلبِه عَسُر عليه فهْمُ مسألةٍ شرحها له شيخٌ من شيوخه في الفرائض، فلمَّا رجع إلىٰ مستقرِّه من البيوت - وكان بعد العشاء - أَوْقَدَ السِّراجَ، ثمَّ استحضرَ ما عنده من كتب الفرائضِ، فلم يزل ينظر فيها ويتفهَّمُها، حتَّىٰ إذا أَسْفَرَ الفجر وإذا هو قد فهمها وأدركَها.

ثمَّ قال لمملوكٍ له كان معه: سأنام بعد الفجر ولا تُوقِظْنِي، فقد نلتُ من سهر البارحة ما يُغْنِينِي عن ذهابي اليومَ للعلمِ.

فتعطَّل ذلك اليومَ عن الذَّهابِ إلىٰ دروسه المعتادة عند شيوخه؛ اكتفاءً بما بَذَلَه من الجُهد في دَرْك مسألةٍ واحدةٍ لم يزل يُراجعها حتَّىٰ فهمَهَا.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلمْ أنَّ ممَّا يُعِين الطَّالب على الظَّفَر بالعلم؛ جمْعَ نفسه على تلقِّي الأصول تحفُّظًا وتفهُّمًا؛ فإنَّ إفراغ زهرةِ العُمُر وقوَّة النَّفس في طِلابِها أحسنُ الانتهازِ للفرصةِ وأكملُه، وبِها ابتداءُ العلوم مِن أوائلها، وإتيانُها مِن مداخلها.

فأقبِلْ على حفظِ الأصول المعتمَدَةِ في فنون العلم وتفهُّمِ مقاصدِها، جامعًا بين ضبطِ المبنى ووعْيِ المعنى؛ فهي سُلَّم الارتقاء إلى الحِذق في العلم، وتحصيلِ ملَكَةِ الفَنِّ؛ فإنَّ الحذق يُدرَك بثلاثة أمورٍ:

أوَّلها: الإحاطة بمبادئ العلم وقواعدِه.

ثانيها: الوقوف على مسائله.

ثالثها: استنباط فروعه من أصوله.

وأيسرُ سبيلٍ للتَّحقق بِهذه الأمور الثَّلاثة: بقرُ الأصول، واسْتِبْطَانُ منطوقها ومفهومها، حتَّى يمتلئَ القلبُ بحقائقها، وتَثْبُتَ في النَّفسِ مقاصدُها، فيصيرَ الممارسُ لها ذا حذقٍ وبصيرةٍ بِها.

وانْهل مِن موارد العلوم أصلًا وفرعًا، غايةً وآلةً، **فالتَّبحُّر في العلم فضيله، والمشاركة في كلِّ فنٍّ غنيمه.**

وما أحسنَ - عند أهل الذَّوقِ والوَجْدِ مِن طلَّاب المعاني - قولَ ابن الورديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ   فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ

ويقبُح بالمرء أن تكون له قدرةٌ وليست له همَّةٌ، فيَقْعُدُ عنِ استنباط علمٍ مع القدرة عليه، ويتباعد عنه مع قُرب طريقِ وصولِه إليه.

ومِن خصائصِ علوم الدِّيانة ارتباطُ بعضها ببعضٍ، فمَحِلُّها إلىٰ النُّورين: القرآنِ والسُّنَّةِ، وهما وحيٌ من الله، وإذا كان المَنْبَعُ واحدًا؛ كان الارتباط واضحًا.

قال الزَّبيديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ألفيَّة السَّنَدِ»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ   وبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ

والتَّفريق بينها بالاقتصار علىٰ فنٍّ واحدٍ دون تحصيل حصول بقيَّة الفنون: مِن آثار الاقتداء بعلوم أهل الدُّنيا الَّتي سَرَت في كثيرٍ من المشتغلين بعلوم الشَّريعة.

وثبوتُ القَدَم علىٰ الصِّراط الأتَمِّ هو في تحصيلِ أصول الفُنون دون اتِّساعٍ فيها، ثمَّ التَّشاغلِ بما شاءَ العبدُ منها، ممَّا وجد قوَّته فيه، وقدرَتَه عليه.

أمَّا بلوغُ الغايةِ وحصولُ الكفايةِ في علوم الدِّيانة جميعًا؛ فليس متهيِّئًا لكلِّ أحدٍ، بل يختصُّ به الله مَن يشاء مِن خلقه، وملاحظة الاختصاص تُهوِّن المغامرةَ فيه، وتَجَشُّمَ العناءِ حتَّىٰ ينال المُنىٰ.

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْمُنَىٰ   فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ

قَالَ الشَّارِحُ وفّقَ اللهُ:

ختم المصنِّف - وفقه الله - مقالتَه عقد المصنِّف - وفَّقه الله - فصلًا آخر ناصحًا ملتمسَ العلم (أنَّ ممَّا يُعين الطَّالب علىٰ الظَّفَر بالعلم؛ جمْعَ نفسه علىٰ تلقِّي الأصول تحفُّظًا وتفهُّمًا)؛ بأن يُفرِغ زهرةَ عمُرِه وقوَّةَ نفسِه في تلك الأصول حفظًا وفهمًا، فيكون شُغْلُه في ابتداءِ طلبِه ومعظمِ زهرةِ شبابه في تلقِّيه المتونَ المعتمدةَ في كلِّ فنٍّ حفظًا وفهمًا.

وبه يتحقَّق لملتمس العلم (أحسنُ الانتهاز للفرصة وأكملُه، وبِها ابتداءُ العلوم مِن أوائلها، وإتيانُها مِن مداخلها).

قال: (فأقبِلْ علىٰ حفظ الأصول المعتمَدَةِ في فنون العلم وتفهُّم مقاصدِها، جامعًا بين ضبطِ المبنىٰ ووعْيِ المعنىٰ) - أي فهمِه -، (فهي سُلَّم الارتقاء إلىٰ الحِذق في العلم، وتحصيل ملَكَةِ الفَنِّ)؛ فلا يُنال العلم إلَّا بإعمال قوَّة الحفظ والفهم معًا.

ومَنْ ظنَّ أنَّه ينال العلمَ بلا حفظٍ، أو ينالُه بلا فهمٍ؛ فإنَّه لا يُدرك بغيتَه منه.

وقد آلَتْ حال النَّاس إلىٰ تعظيم الفهم وتقديمه؛ اغترارًا بالمنهج الغربيِّ في التَّعليم، وعَزُبَ عن علم هؤلاء أنَّ علم الشَّريعة له من الخصائص ما لا يشاركه فيه علوم أهل الدُّنيا مِن أهل الكفر أو أهل الإسلام، فالعلوم الدِّينيَّة لها شأنٌ، والعلوم الدُّنيويَّة لها شأنٌ آخر.

والحفظ مقدِّمةُ الفهم؛ فمَنْ لم يكن له حفظٌ لم يكن له فهمٌ كاملٌ، وما يَحُوزه من الفهم هو علىٰ الحقيقة فهمٌ ناقصٌ؛ فإنَّ الفهم الَّذي يُمدَح في العلم ليس هو إدراك ما بين ناظريك، بل وجودُ فهمٍ تتَّسع دائرتُه بين مواردَ مختلفةٍ من محفوظاتك، فتجمع هذا إلىٰ ذاك، وذاك إلىٰ هذا، فتكون صورة الفهمِ عندك أقوىٰ من صورة الفهم عند مَنْ قصُرَ عقلُه عن حفظِ العلم وكان غايةُ فهمِه وعيُ ما بين يديه من الكلام.

قال: (فإنَّ الحذق) - وهو إتقان العلم والقوَّةُ فيه - (يُدرَك بثلاثة أمورٍ):

❁ (أوَّلها: الإحاطة بمبادئ العلم وقواعِده)؛ أي استيلاء النَّفس علىٰ مبادئ العلم وقواعده الجامعة، استيلاءً تكون به النَّفس محيطةً بذلك العلم.

❁ و(ثانيها: الوقوف علىٰ مسائله)؛ بحُسن تَتَبُّعها تلَقِّيًا واحدةً واحدةً من أوَّلِ العلم إلىٰ آخره.

❁ و(ثالثها: استنباط فروعه من أصوله)؛ بردِّ مفرادته إلىٰ جوامعه، فتُرَدُّ تلك الفروع إلىٰ الأصولِ ردَّ استنباطٍ؛ بأن تعلمَ مواقعَ تلك الفروعِ من أصولِه.

فمتىٰ اكتملت هذه الأمور الثَّلاثة صار المتَّصف بِها حاذقًا في العلم.

ثمَّ قال: (وأيسرُ سبيلٍ للتَّحقق بِهذه الأمور الثَّلاثة: بقرُ الأصول) - أي شَقُّها -، (واسْتِبْطَانُ منطوقها ومفهومها)؛ بأن تكون في باطن المتعلِّم منطوقًا ومفهومًا، (حتَّىٰ يمتلئَ القلبُ بحقائقها، وتَثْبُتَ في النَّفسِ مقاصدُها، فيصيرَ الممارسُ لها ذا حذقٍ وبصيرةٍ بِها)؛ فجمعُ النَّفس علىٰ أصول العلم من متونِه المعتمدةِ، وتفهُّم معانيها، وشقُّ ما انطوتْ عليه من نافع العلم، والتَّحقُّقِ بثبوت تلك المعاني منطوقًا ومفهومًا في القلب ممتلئًا بِها؛ هي الَّتي تُؤدِّي إلىٰ حصول الحذق في العلم.

ومن طرائق بقرِ تلك الأصولِ واستبطانِها: دوام تعلُّمها وتعليمها، فإنَّ هذا هو الَّذي تكون به تلك الأصول ثابتةً في نفسك، قويَّةً في قلبك، يزدادُ معك من العلم بِها ما لم يكن معك مِنْ قبلُ.

وانظرْ إلىٰ أصلِ العلم ويَنْبُوعِه وهو القرآن الكريم، فإنَّ صاحب العلمِ إذا جدَّد نظره فيه؛ تجدَّد له ما لم يكن معه قبل من معانيه، وهذا مطَّرِدٌ في كلِّ أصلٍ من أصول العلم مِن متونه المعتمدة، وأعلاها القرآنُ ودواوينُ الحديث.

فإنَّ مَنْ أدمن النَّظر في تلك الأصول، يحصل له من الفهم للمعاني ما لم يتكلَّم به أحدٌ ممَّنْ تناول تلك التَّصانيفَ بالفهم والإيضاح.

فقوَّةُ الفهم ودقَّةُ النَّظر يتفاوت فيه النَّاس، وممَّا يقوِّيه فيك: لزومُك هذه الأصول، وكثرةُ تكرارِكَ لها، فإنَّه بالتَّكرار تَقِرُّ فيك معانيها، وتقوىٰ في نفسك مبانيها، ويتجلَّىٰ لك مِن حقائقها ما لم يكن معك مِن قبلُ.

ولا تَجدُ أصلًا مِن أصول العلم من القرآن والسُّنَّة فما دونَهما إذا أعملتَ فيه هذا؛ إلَّا وجدتَ منَ الفهم ما يطيشُ به العقل، ويَذْهَلُ منه القلب، ويقعُ في النَّفس العَجَبُ من ترْك هذه المعاني، والإخلادِ إلىٰ غيرها.

والخبرُ عمَّا يُذاق ويُوجَد ممَّا يُحْصَر اللِّسان فيه وينقطع دونه البيان؛ كما ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في «طريق الهجرتين» وغيره.

لكن اعتبِر هذا بأخذِكَ أصلًا واحدًا من أصول العلم، وليكن ممَّا لَطُف، ثمَّ كرِّر قراءته، وتفهَّمْه، ثمَّ أعِدِ التَّكرار مرَّةٍ بعد مرَّةٍ بعد تقدُّم حفظِك، واستشراحِك له عند أحدٍ من شيوخ العلم، فستجدُ من معانيه ما لم يكن عندك من قبلُ، وقد لا يُوجَد عندَ أحدٍ مِن شارحيه قبلُ؛ لأنَّ تدقيقَ النَّظر وإجالة الفِكرِ أمرٌ يَضْعُف عند النَّاس ولا سيَّما في المتأخِّرين؛ لقلَّة محبَّة العلم غالبًا عندهم، وإذا وُجِدتْ تلك المحبَّة لم يكن مسلوكًا بِها ما ينبغي مِن إفراغها فيما ينفع.

فإذا جرَّبتَ ما ذكرتُ لك؛ فستعلم منفعةَ تَكرارِ تلك الأصولِ ولزومِها، وحُسنَ عائدتِها، وعظيمَ فائدتِها علىٰ النَّفس، فإذا داومتَ لزوم هذا في التَّعلُّم والتَّعليم وجدتَ من حلاوة العلم ولذَّته وأسراره وغوامضِه ما يقوِّي محبَّتك للعلم، ويجعلك دائمَ النَّظر إلىٰ نفسك بالجهل.

قال سهلُ بن عبد الله التُّستَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «لا يعرفُ الجهلَ إلَّا العلماء».

فإذا كمُل علمُك، وارتقىٰ مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ وَقَرَ في قلبك قدرُ الجهل الَّذي كنتَ فيه من قبلُ، ولا يزال غيرُك ممَّن لا يرفع رأسًا إلىٰ هذا غائرًا في عمقِه.

قال: (وانْهل مِن موارد العلوم أصلًا وفرعًا، غايةً وآلةً، **فالتَّبحُّر في العلم فضيله، والمشاركة في كلِّ فنٍّ غنيمه.**

وما أحسنَ - عند أهل الذَّوقِ والوَجْدِ مِن طلَّاب المعاني - قولَ ابن الورديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مِنْ كُلِّ فَنٍّ خُذْ وَلَا تَجْهَلْ بِهِ فَالْحُرُّ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ الْأَسْرَارِ)

لأنَّ الحُرَّ يَأْنَف بطبعه أن يُذكر عنده شيءٌ ثمَّ لا يفهمُه، ومِن جملة ما يأْنَفُ منه الحرُّ: عدم فهمه لفنٍّ من فنون العلم؛ فالحرُّ حقيقةً هو الَّذي تحمِلُه الحميَّة لنفسه والغيرة عليها والحماسة لها بتطلُّب فهم ما يُلقىٰ من العلم، حتَّىٰ لا يكون محجوبًا عنه، محبوسًا دونه.

وقوله: (عند أهل الذَّوقِ والوَجْدِ)؛ **الذَّوق والوَجْد**: اسمان لمَا يُدرَك بالقلوبِ من طعمِ علمٍ أو عملٍ، فيهما أحاديثُ عدَّةٌ، منها حديث العبَّاس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «صحيح مسلمٍ»؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا...**» الحديثَ.

وفي «الصَّحيحين» من حديث أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ...**».

ولابن تيمية الحفيدِ كلامٌ نافعٌ في بيان الذَّوق والوَجْد الإيمانيِّ، ذكره في «إقامة الدَّليل علىٰ إبطال التَّحليل».

ولصاحبه أبي عبد الله ابن القيِّم، وحفيدِه في العلمِ أبي الفرج بن رجبٍ كلامٌ متفرِّقٌ في هذا.

ثمَّ قال: (ويقبُح بالمرء أن تكون له قدرةٌ وليست له همَّةٌ، فيَقْعُدُ عنِ استنباط علمٍ مع القدرة عليه، ويتباعد عنه مع قُرب طريقِ وصولِه إليه)؛ فيكون له مُكْنَةٌ علىٰ تعاطيه، وقدرةٌ علىٰ الفهم فيه، لكنَّه يقعد بِهمَّته عن الدُّخول فيه.

ومن عيونِ شعر المتنبِّي قولُه:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا   كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَىٰ التمَامِ

فمَنْ كانت له قدرةٌ ينبغي أن يشعل في قلبِه همَّةً، وأن يغارَ علىٰ نفسِه من الجهل، وأن تقوىٰ حميَّتُه لها في إخراجها من الجهل إلىٰ العلم.

وقوَّة هذا في النَّفس من الأسباب الَّتي تمكِّن منَ العلم.

وفي أخبار **المختارِ ابن بُونَا الجكنيِّ الشِّنقيطيِّ** - من مجدِّدي العلم في بلاد شنقيط، صاحب كتاب «احمرار ابن بُونَا علىٰ الألفيَّة» وغيره -: أنَّه كان في ابتداء طفولته مبسوطَ القوَّةِ، فكان في حالِ الطُّفولة يعدُو علىٰ أقرانِه من الصِّغار ويأخذُ ما معهم من طعامٍ أو غيره، فعمدَ يومًا إلىٰ واحدٍ منهم وهجم عليه وأخذ ما بيده من طعامٍ، فانقلبَ قِرْنُه إلىٰ خيمة أمِّه باكيًا، فخرجت أمُّه لبكائِه، فلمَّا بَرَزَتْ من خِدْرِها رأتِ المختارَ ابنَ بُونا - وكان طفلًا - قد أخذ طعام ولدِها، فقالت له: يا جاهل، فحمِيَ لنفسه وألقىٰ ما بيدِه من الطَّعام، ورجع إلىٰ خيام أهله، فقال: ما يقرأ مَنْ أراد العلم؟

فقالوا له: «مقدمة ابن آجُرَّام»، فغاب عن أهله مدَّةً حتَّىٰ أتقنها، ثمَّ انفتح له باب العلم!

فكانت غيرتُه علىٰ نفسه بالنِّسبة إلىٰ الجهل حاملةً له علىٰ طلب العلم والازدياد فيه.

ثمَّ قال: (ومِن خصائصِ علوم الدِّيانة ارتباطُ بعضها ببعضٍ)؛ أيِ اتِّصالُ بعضها ببعض، (فمَحِلُّها)؛ أي منتهاها، والمَحِلُّ - بكسر الحاء -: المنتهىٰ، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣﴾ [الحج:٣٣]؛ أي منتهاها إلىٰ البيت العتيق.

قال: (فمَحِلُّها إلىٰ النُّورين: القرآنِ والسُّنَّةِ، وهما وحيٌ من الله)؛ فالقرآن وحيٌ والسُّنَّة وحيٌ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ٥٢﴾ [الشورىٰ:٥٢]؛ يعني القرآن.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم:٤].

قال شيخُ شيوخنا حافظُ الحكميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَسُنَّةُ النَّبِيِّ وَحْيٌ ثَانِي ... عَلَيْهِمَا قَدْ أُطْلِقَ الْوَحْيَانِ

ثمَّ قال: (وإذا كان المنبعُ واحدًا؛ كان الارتباط واضحًا)؛ فاجتماعهما في منبعٍ واحدٍ يقضِي بارتباطهما ارتباطًا جليًّا واضحًا.

(قال الزَّبيديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ألفيَّة السَّنَد»:

فَإِنَّ أَنْوَاعَ الْعُلُومِ تَخْتَلِطْ ... وَبَعْضُهَا بِشَرْطِ بَعْضٍ مُرْتَبِطْ)

أي بعضُها آخذٌ بِرِقَابِ بعضٍ، لا ينفصل عنه، ولا ينقطع دونه.

ثمَّ قال: (والتَّفريق بينها بالاقتصار علىٰ فنٍّ واحدٍ دون تحصيل حصول بقيَّة الفنون: مِن آثار الاقتداء بعلوم أهل الدُّنيا الَّتي سَرَت في كثيرٍ من المشتغلين بعلوم الشَّريعة)؛ فإنَّ العلوم الدُّنيويَّة دأبَ أهلُها علىٰ إفراغ قوَّتهم في ذلك العلمِ؛ كعلم الطِّبِّ، أو علم الفلك، أو غيره، حتَّىٰ يُتقنه وينبُلَ فيه، ثمَّ استُصحب هذا في علوم الدِّيانة، فصار من شعار النَّاس اليومَ الانكبابُ علىٰ علمٍ واحدٍ منها، دون تحصيل بقيَّة الفنون، وهذا محلُّ عيبٍ.

فتجدُ أحدَهُم ينْسِبُ نفسَه إلىٰ التَّفسير وهو لا يعرفُ الحديثَ، أو إلىٰ الحديثِ وهو لا يعرفُ التَّفسير، أو إلىٰ الفقه وهو لا يعرف الحديثَ ولا التَّفسير، أو إلىٰ هذه العلومِ وهو لا يعرف العقيدةَ.

ومثلُ هذا ممَّا لا يتأتَّىٰ في العلوم الشَّرعيَّة.

لكنَّ الممكنَ في العلوم الشَّرعيَّة هو المذكورُ في قوله: (وثبوتُ القَدَم علىٰ الصِّراط الأتَمِّ هو في تحصيلِ أصول الفُنون دون اتِّساعٍ فيها، ثمَّ التَّشاغلِ بما شاءَ العبدُ منها، ممَّا وجد قوَّته فيه، وقدرَتَه عليه)؛ فيبتدئ ملتمسُ العلم الأخذَ في كلِّ فنٍّ بأصلٍ منه، فإذا وعىٰ تلكَ الأصولَ حفظًا وفهمًا تشاغلَ بما شاء من العلوم، ممَّا يجدُ قوَّته فيه وقدْرَتَه عليه، فإنَّ رغبة النَّفس في شيءٍ أو قوَّتَها عليه دون غيره أجدرُ بأن يكون تعاطي صاحبه له أنفعُ له من غيره، فمتىٰ وُجِد هذا واسترشد المتعلِّم من شيخه، كان هذا ممدوحًا غير مذموم.

فيتلقَّىٰ أصلًا نافعًا في الاعتقاد، وأصلًا نافعًا في التَّفسير، وأصلًا نافعًا في الفقه، وأصلًا نافعًا في الحديث، وأصلًا نافعًا في النَّحو، وأصلًا نافعًا في الأصول...، إلىٰ آخر تلك العلوم.

ثمَّ ينظر إلىٰ نفسِه بإرشاد شيخِهِ فيما تقوىٰ عليه نفسُه، ويرغبُ فيه من فنٍّ أو فنَّين أو أكثر، فيُوعِبُ فيها ويتمادىٰ في طَلَبِها، ويصحُّ حينئذٍ أن يُقال فيه: (إنَّه متخصِّصٌ)، أمَّا دعوىٰ (التَّخصُّص) مع الجهالة بأصولِ العلوم؛ فهذه دعوًىٰ كاذبةٌ.

وأخذُ أصولِ علمٍ ما، لا يلزم منه أن يكون أخذًا لكتابٍ واحدٍ أو كتابينِ، لكن يلزم منه الأخذ بقدرٍ يُنتهىٰ إليه، ثمَّ يُتشاغَل بغيره.

فمثلًا: مَنْ أراد العربيَّة كفاهُ أن يتلقَّىٰ في الأخذِ الحَسَنِ «مقدِّمة ابن آجرَّامٍ» و«ألفيَّة ابن مالكٍ»، فإذا أتقنهما وأحسنَ استعمالَ قواعدِهما بالتَّمرُّن في الإعراب، انتقل إلىٰ غير العربيَّة من العلوم، ويستصحبُ هذا في العلمِ كلِّه.

ثمَّ بعد ذلك إذا أراد أن يكون متخصِّصًا في علم التَّفسير مثلًا، جمعَ خَيْلَهُ ورَجْلَهُ عليه، وتوسَّع في قراءة كتبه، وعَقْلِ مسائلِه والبحثِ فيها، فبهذا ينبلُ في علم التَّفسير.

أمَّا أن يشتغل بعلم التَّفسير وهو لم يقرأ «مقدِّمة ابن آجرَّامٍ» و«ألفيَّة ابن مالكٍ» في النَّحو، ولا قرأ «مائة المعاني والبيان» و«الجوهر المكنون» في البلاغة، ثمَّ يقول: إنَّه متخصِّص في التَّفسير! ؛فهذه دعوىٰ لا برهانَ عليها.

والتَّخصُّص ليس بالشَّهادات، التَّخصُّص بحُسن الإتقان للعلم، فالإتقانُ للعلم هو الَّذي يُنال به التَّخصُّص، أمَّا حصوله علىٰ درجة الدُّكتوراه في الفقه فلا يجعله فقيهًا، أو تلك الدَّرجة في الحديث لا يجعله محدِّثًا، أو تلك الدَّرجة في التَّفسير لا يجعله مفسِّرًا، لكن تمكُّنه من ذلك العلمِ وإتقانُه له، وتأسيسُه أصولَ العلم في نفسه مع الزِّيادة عليه بالإيغال في علمٍ ما حتَّىٰ تكون له ملكَةٌ فيه؛ هذا يصحُّ به اسم (التَّخصُّص).

فالتَّخصُّص له مقامان:

❁ **أحدهما**: الإيغالُ في علمٍ بعد تأسيس الأصولِ؛ وهذه طريقة الفُحُول.

❁ **والآخر**: الإيغالُ في علمٍ مع عدم أخذ الأصول، وهذه طريقة أهل الفضول، ممَّن لا تصحُّ نسبتُهم إلىٰ العلم حقيقةً؛ كالَّذي مثَّلنا به من أحوال المنتسبين بالتَّخصُّص إلىٰ علمٍ ما، فتجدُه متخصِّصًا بِدَعْوَاه في التَّفسير، ثمَّ يقول: هذا الحديث رواه النَّوويُّ في «رياض الصَّالحين»!، فمثلُ هذه الكلمةِ تدلُّ علىٰ جهلٍ بالغٍ بعلم الحديث، لا يحصلُ ممَّن أخذ طرفًا حسنًا من الحديث.

لكنَّ الحوادث الَّتي اكتسحت طريقَ العلم وأفسدتَه، صارت إلىٰ حالٍ بِها يبكي أهل العلم عليه، ويَنْعُونَ ذهابَ أهله، وفقدان رَوْنَقه، وامِّحال بَهجته، وتَجَدَّد دعاوىٰ يَسْتَكْثِرُ بِها المستكثِرُون في الانتساب إلىٰ العلم، لكنْ سَلوتُهم أنَّ الله لا يضيِّع دينَه، وأنَّ الدِّين دينُ الله، والأمرَ أمرُ الله، فالله يُهيِّئُ غَرْسًا يحفظُ بِهم دينَه.

لا يلزمُ أن تكونَ لهم الشَّارات والرَّايات، والمناصب والرِّئاسات، لكنَّ الله يُحَلِّيهم بحلية العلم الَّتي يجعل سبحانه الظُّهور لأهلِها، فإنَّ الظُّهورَ بالعلمِ ليس بأيدي النَّاس، ولكنَّه بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ولو جمع أحدٌ دعمًا لنفسِه وترويجًا لها قوالبَ متعدِّدةٍ من بثِّ اسمه بين النَّاس، أو صنَّف قومًا ينتسبونَ له ويصفونه بـ(العلَّامة)، أو سلك الحصول علىٰ أعلىٰ الشَّهادات مع خُلُوِّه من العلم علىٰ الحقيقة؛ فوالله لا يظهره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالعلم، وإن كان المنتسب إلىٰ العلم من أهله علىٰ الحقيقة أظهرَه الله عَزَّوَجَلَّ، وإن لم يكن له من هالة الإعلام أو نصرةِ الأقلام ما يكون مِن غيره.

واعتبِر هذا في القرن الماضي في رجلٍ نُشِرُ له تلاميذُه آلافًا مؤلَّفةً من المغرب إلىٰ الصِّين، وهو العلَّامة نذيرُ حُسَين بن جوادِ علي الدِّهلويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإنَّ هذا الرَّجل كان يُقْصَد في الهند ولم يكن له في الإعلام شُهرةٌ ولا ذِكْرٌ، فكان النَّاس يتهافتون إليه لقراءةِ علم الحديث خاصَّةً عليه، وتَعْجَبُ كيف أنَّ أناسًا خرجوا إليه، وكيف وصل علمُه إليهم.

لكن إذا وقَرَ بقلبِك أنَّ العلمَ لله والله حافظُه، علمت أنَّ الله يهيِّئُ له من الأسباب ما يحفظه به.

وكثيرٌ من أهل هذا القطر خَرَجُوا إليه وانتفعوا به، ولازموه مدَّةً، منهم مَنْ لازمه سنتين، ومنهم مَنْ لازمه خمس سنواتٍ، ومنهم دون ذلك، ومنهم أكثر من ذلك.

ولم يكن له من الدِّعاية والذِّكْر والانتشارِ في وسائل التَّواصل الاجتماعيِّ ما يُوجَد عُشْرُ معشاره لكثيرٍ ممَّنْ يُنسبون إلىٰ العلم اليوم وليسوا من أهله.

لكن كان له رَحِمَهُ ٱللَّهُ من محبَّة العلم والقيام به وبأهله، ما جعلَ الله عَزَّوَجَلَّ له به النَّفعَ للخلق، ويكفي أن تعلمَ أنَّ ديوانين من الدَّواوين المشهورة في شرح الحديث وهما «تحفة الأحوذيِّ» للمُبَارْكفوريِّ، و«عون المعبود» لشمس الحقِّ العظيم آبادي، هما لرجلين من تلاميذه.

فلو لم يكن له من النَّفع إلَّا بروز هذين التِّلميذين اللَّذين صنَّفا هذين الكتابين لكفىٰ ذلك له فخرًا وذِكْرًا.

وإنَّما بلَّغه هذه المرتبةَ - كما سبق - محبَّتُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلمَ وجلوسُه له، وحرصُه علىٰ نفع أهلِه، وصبْرُه علىٰ تعليمِ النَّاس، ورِفْقُه بالطَّلبة، ومبالغتُه في نُصحهم.

ومِن أخباره رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه مرَّةً وفَدَ عليهِ رجلٌ مِن طُلَّاب العلم - وصار من رؤُسائه فيما بعدُ - يُقَال له: عبد الله الغَزْنَوِيُّ، من بلاد غَزْنَةَ من أفغانستان، وكان الوصولُ إلىٰ (دِلْهي) يتأتَّىٰ في زمنه بالقطارات، فقدِمَ عبد الله الغَزْنَوِيُّ عليه، وركب القطار للوصول إلىٰ دِلهي.

فلمَّا وصل إلىٰ محطَّة القطار - وكان كفيفًا -، قصدَهُ رجلٌ من المنتظرين في محطَّة القطار، فسلَّم عليه وسأله عن مقصوده في دِلْهي، فإنَّ هيئتَه هيئةُ غريبٍ، فقال: جئتُ أطلبُ الدِّراسة عند نذير حسينٍ.

فقال هذا الرَّجلُ: أنَا آخذك إلىٰ مسجدِه.

فأخذه إلىٰ مسجده، وحمل له متاعَه، وقاده بيده، حتَّىٰ أتىٰ المسجد.

فلمَّا أدخله فيه وضعَ له متاعَه، فأراد الغَزْنَوِيُّ أن يدفعَ إليه أجرتَه، فاعتذر إليه وقال: إنِّي أحبُّ خدمة طلَّاب العلم، فلا أريد منك أجرًا، ثمَّ خرجَ.

فلمَّا صلَّىٰ الغَزْنَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ركعتين، سمع صوتَ بعض الطَّلبة في المسجد، فقصدهم وسلَّم عليهم وعرَّفهم بنفسه، وقال لهم: متىٰ يأتي الشَّيخ نذير حسين؟

فقال له الطَّلبة: إنَّ الشَّيخ نذير حسين هو الَّذي أدخلك المسجَد وأجلسَك في مَقامَك ووضع لك مَتاعَك، فاستعظمَ صدورَ هذا منه، ودخله من القلق شيءٌ عجيبٌ، كيف أن يقع منه ذلك في حقِّ مَنْ قصَدَه في العلم!

فلمَّا جاء موعد الدَّرس وانفضَّ المجلس بعده، قصده عبد الله الغَزْنَوِيُّ، واعتذر إليه بأنَّه كلَّفه أخذه إلىٰ المسجد وحَمْلَهُ متاعَه، وأنَّه لم يعرفه.

فقال له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»، وأنتَ ضيفٌ لي، فإنَّك لم تخرجْ مِن بلادك إلَّا لأجل القراءة عليَّ، فمَا فعلتُه لك هو مِن إكرام الضَّيف.

وله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا أحوالٌ وأحوالٌ، هي الَّتي جعلت رجلًا من بلاد الهند تقصدُه النَّاس من كلِّ قطرٍ، بلا دِعاية مُعلِمَةٍ، ولا إعلامٍ مُشْهِرٍ، وجعلَ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ يديه من النَّفع في طلَّابه وطلَّابِ طلَّابه شيئًا كبيرًا إلىٰ يومنا هذا.

ثمَّ قال: (أمَّا بلوغُ الغايةِ وحصولُ الكفايةِ في علوم الدِّيانة جميعًا؛ فليس متهيِّئًا لكلِّ أحدٍ، بل يختصُّ به الله مَن يشاء مِن خلقه)؛ فالنَّاس متفاوتون في النُّبْل في العلم في أنواعِ علومه، فلا يتهيَّأ بلوغُ الغاية وحصول الكفاية في العلم كافَّةً؛ إلَّا لأفرادٍ من الخلق يهيِّئُ الله عَزَّوَجَلَّ لهم ذلك، ويختصُّهم به فضلًا منه ونعمةً.

قال: (وملاحظةُ الاختصاص) - أي أنَّ بلوغ الغاية والكفاية في أنواع العلوم نوعُ اختصاصٍ من الله - (تُهوِّن المغامرةَ فيه)؛ أي يَهوُن علىٰ الرَّاغب في اختصاصِ اللهِ له بالنِّعمة والفضل أن يغامرَ في طلب أنواع العلوم، وأن يتجشَّمَ العناءَ والتَّعب حتَّىٰ ينالَ المُنىٰ، ولسانُ حالِه:

(لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَىٰ فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلَّا لِصَابِرِ)

فمَنْ صابَرَ العلمَ وكابدَه، وبذلَ فيه نفسَه ومالَه، وأدمنَ الحرصَ عليه؛ ينالُ منه مؤمَّله، فإنَّ العلم منحةُ الكريمِ سبحانه، ومَنْ أَلَظَّ وألحَّ علىٰ الكريم، وسلك طرق أخذِه العلم، وكمَّل عبوديَّته لله فيه؛ هيَّأ الله عَزَّوَجَلَّ له من الأسباب ما لا يكونُ لغيره.

وقد تجدُ في النَّاس قويَّ الحفظِ، حَسَن الفهمِ، لكنَّه يُحَالُ بينه وبين العلم، ومتىٰ رأيتَ هذا وَجَب عليك أن تشهدَ نعمةَ الله عليك إذْ يسَّر لك الإقبال علىٰ العلم، وأنْ تزدادَ مِن دعاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يعلِّمك ما لم تكن تعلمْ، وأن ينفعَك بعلمِك، فإنَّ كمال العبوديَّة في العلم - تضرُّعًا، وابتهالًا، ودعاءً، وسؤالًا، وإلحاحًا - يُستَجْدَىٰ به العلم.

فالمسألة الَّتي يعسُر عليك حفظُها أو فهمُها، إذا كرَّرت معها الاستغفارَ ودعاءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتحَ الله عَزَّوَجَلَّ لك أبوابًا في فهمِها، قد لا تتهيَّأ لغيرك.

وفي أخبار أهل العلم مِن ذلك حظٌّ وافرٌ، حتَّىٰ صارَ مِن فتوحات الله عليهم أن يَرَوْا في المنامات ما تتَّضح به المسائلُ المُشْكِلات.

وهذا مذكورٌ في أحوالِ جماعة من أهل العلم؛ كالطَّبرانيِّ، وأبي الفرج ابن رجبٍ، وغيرهما رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

واعلم أنَّ الوصول إلىٰ الحِذق في العلم لا يتهيَّأ بأخذه دَفعةً واحدةً، بل لا بدَّ من تدريج النَّفس فيه شيئًا فشيئًا، ويتحقَّق هذا بتكرار دراسة الفنِّ في عدَّة أصولٍ له، تنتظم ارتفاعًا منَ الإيجازِ إلىٰ التَّوسُّطِ ثمَّ الطُّولِ، وقد يكون لكلِّ مرتبةٍ أصلٌ واحدٌ، وقد تضمُّ أصلين اثنينِ.

وتختصُّ الأصول الموجَزة بكونِها جامعةً للمسائل الكبار في كلِّ بابٍ، ثمَّ تتزايد مسائلُه في الأصولِ المتوسِّطَة والمطوَّلة.

ومفتاحُ الانتفاعِ بكلٍّ هو أن يتلقَّىٰ الطَّالبُ الأصولَ الموجزةَ علىٰ سبيل الإجمال؛ ليتهيَّأَ له بذلك فهمُ الفنِّ وتحصيلُ مسائلِه.

ويتلقَّىٰ بعدَها الأصولَ المتوسِّطة؛ مستوفاةَ الشَّرح والبيانِ، مع ذِكْرِ ما هنالك من الخلاف ووجهِه، فتقوىٰ بذلكَ ملكتُه في الفنِّ.

ثمَّ يتلقَّىٰ بعدها الأصولَ المطوَّلة؛ مستكمِلًا شرحَها وبيانَها ومعرفةَ خلافيَّاتِها، ويُزَادُ له حلُّ المُشكلاتِ، وتوضيحُ المُبْهَماتِ، وفتحُ المقفلاتِ، فيصل بِهذه العُدَّةِ إلىٰ ملكةِ الفنِّ.

وهو شبيهٌ باجتماع الخَلْقِ علىٰ ترتيب الدِّراسة النِّظاميَّة فيما دون الجامعة في مراحلَ ثلاثٍ: الابتدائيَّة والمتوسِّطة والثَّانويَّة.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

عقد المصنِّف - وفَّقه الله - فصلاً آخر ناصحًا ملتمس العلم (أنَّ الوصول إلىٰ الحِذقِ في العلم لا يتهيَّأ بأخذه دَفعةً واحدةً، بل لا بدَّ من تدريج النَّفس فيه شيئًا فشيئًا)؛ فإنَّ النَّفس إذا دُرِّجت وصلتْ إلىٰ المقصود، فإذا هجمتْ عليه حِيل بينَها وبينَه؛ لأنَّ القلوب عند مباشرتِها العلمَ تضعُف عن حملِه، فإنَّ العلمَ ثقيلٌ، ولا يتهيَّأ حملُه إلَّا بتدريجِه علىٰ النَّفس شيئًا فشيئًا، **فترُقَّى النَّفس في تحمُّل ثِقَله؛ حتَّىٰ تقوىٰ علىٰ أثقله.**

قال: (ويتحَّقق هذا) - أي التَّدريج - (بتكرار دراسة الفنِّ في عدَّة أصولٍ له، تنتظم ارتفاعًا منَ الإيجازِ إلىٰ التَّوسُّطِ ثمَّ الطُّولِ)؛ فيتلقَّاه مُوجَزًا أوَّلًا، ثمَّ متوسِّطًا ثانيًا، ثمَّ طويلًا ثالثًا.

(وقد يكون لكلِّ مرتبةٍ أصلٌ واحدٌ، وقد تضمُّ أصلين اثنين) معًا؛ فقد يكون في الطُّولِ كتابان يَفتقر إليهما في فهم العلم، وقد يكون فيه كتابٌ واحدٌ، وقد يستغني المتعلِّم مع قوَّته وحذقِ معلِّمه عنِ الاحتياج إلىٰ الإيجازِ والتَّوسُّط والطُّولِ في كلِّ فنٍّ.

فالذَّكيُّ مثلًا في علم العربيَّة إذا رُزِق المعلِّمَ حسنَ التَّعليم أمْكَنهُ الاكتفاء بـ«مقدِّمة ابن آجرَّامِ»، ثمَّ «ألفيَّةِ ابن مالكٍ»، وإن رآه معلِّمه يحتاجُ إلىٰ مزيدِ درسٍ نقله بعد «المقدِّمة» إلىٰ «قَطْر النَّدىٰ»، ثمَّ رقَّاه إلىٰ «ألفيَّة ابن مالك».

لكن ليس من طريقة أهل العلم نقلُ المتعلِّمين مباشرةً إلىٰ المطوَّلاتِ، مهما بلغت قوَّتُهم؛ لأنَّ ذلك يُضِرُّ بقلوبِهم، ويُضْعِفُ أخْذَهم العلم.

ومِن محدثات العصريِّين: زعمُهم أنَّه ينبغي الاكتفاء في أخذ العلوم حفظًا وفهمًا بجمع النَّفس علىٰ أصولها المطوَّلة، فيدْعُون إلىٰ حفظ وفهم «ألفيَّةِ ابن مالكٍ» في النَّحو، و«ألفيَّة العراقيِّ» في المصطلح، و«مراقي السُّعود» في الأصول، إلىٰ غيرها.

ويأمرون بحفظ «الصَّحيحين»، وينهون عن «الأربعين» و«العمدة» و«بلوغ المرام».

ولا يرونَ كبيرَ انتفاعٍ بالأخذ للعقائد منَ الكتب المرتَّبة فيها؛ اكتفاءً بحفظ الطَّالب للقرآن الكريم مع السُّنَّة النَّبويَّة، وأنَّ العقيدة سهلةٌ لا يُحْتَاج فيها إلىٰ ما رتَّبه من رتَّبه من أهل العلم.

وهؤلاء أضرُّ شيءٍ علىٰ الطَّلبة، ولا يفعل هذا إلَّا مَنْ لم يعرفِ العلمَ علىٰ الحقيقة، وإلَّا فمَنْ يعرفُ العلم علىٰ الحقيقة يُدْرِك أنَّ العلم يدخل في القلب بأخذه شيئًا فشيئًا حتَّىٰ يتمكَّن منه.

أو يحملون الطَّلبة علىٰ حال المنتهين، فيكون أحدُهم قد رُقِّي عند شيوخه حتَّىٰ بلغ مبلغ المنتهي، فلمَّا وجد في نفسِه انتهاءً حملَ النَّاس عليه، فيكون ضرَرُه عليهمْ أكبرَ من نفعهم.

فملتمِسُ العلم يجري علىٰ الجادَّة الَّتي رتَّبها أهل العلمِ في أخذه، ولا يَعْدِل عن طريقتهم.

ثمَّ قال: (وتختصُّ الأصول الموجزة بكونِها جامعةً للمسائل الكبار في كلِّ بابٍ)؛ فالمتون المختصرة في أنواع العلوم تكون جامعةً لمسائلِ العلمِ الكبار في كلِّ بابٍ منه، (ثمَّ تتزايد مسائلُه في الأصول المتوسِّطة والمطوَّلة).

قال: (ومفتاحُ الانتفاعِ بكلٍّ هو أن يتلقَّىٰ الطَّالبُ الأصولَ الموجزةَ علىٰ سبيل الإجمال؛ ليتهيَّأَ له بذلك فهمُ الفنِّ وتحصيلُ مسائلِه)؛ فالمُوجزات منَ الأصولِ في فنون العلم لا يُنتفَع بِها أيضًا إلَّا إذا أُخِذَت علىٰ سبيل الإجمال.

فأخذُها علىٰ سبيل التَّفصيل؛ وسيلةٌ للتَّعطيل.

فالَّذي يأتي إلىٰ ملتمس العلم إذا جلس بين يديه ليقرأ عليه كتابًا ما ككتاب «ثلاثة الأصول»، ثمَّ يُمْعِن في تشقيق الكلام عليه حتَّىٰ تكثُر تلك المعلومات الملقاةُ علىٰ

الطَّالب؛ يُضِرُّ بالطَّالب ولا ينتفع بِها، فيجلس بين يديه المتعلِّم، ويبقىٰ معه درسًا واحدًا في قوله: (اعلم).

فيقول: (اعلم): فعلُ أمرٍ.

والأفعال ثلاثةٌ: فعلٌ مضارعٌ، وفعلُ أمرٍ، وفعلٌ ماضٍ.

ومنشأ هذه القسمة من أزمان الأفعال، فإنَّ العمل وسيلتُه الفعلُ، والفعل إمَّا أن يكون في زمنٍ مضىٰ، أو في زمنٍ حاضرٍ، أو في زمنٍ مستقبَلٍ؛ فإن كان في زمنٍ مضىٰ فهو (الفعل الماضي)، وإن كان في زمنٍ حاضرٍ فهو (الفعل المضارع)، وإن كان في زمنٍ مستقبَلٍ فيشتَرِك فيه (المضارع) و(الأمر)، ويُفرَّق بينهما بعلامةِ كلٍّ كما سيأتي، فيُشْغِل الطَّالبَ بقولِه (كما سيأتي)؛ لأنَّ الطَّالب لا يتصوَّره.

ثمَّ يبقىٰ في بيان حقيقة العلم، وأقسام العلم حُكمًا بين الفرض والكفاية، وأنواع العلوم، فيمكنه أن يبقىٰ درسًا كاملًا في قوله: (اعلم)، لكنَّ الطَّالب لا ينتفعُ، ولا هو أيضًا ينتفع.

فإنَّ الَّذي يُدرِّس النَّاس علىٰ التَّفصيل يشتِّت قوَّتَه، ويُضعِفُ مداركَه، وإن توهَّم أنَّ مداركه تقوىٰ بِهذا؛ لأنَّ الإجمالَ أمكنُ في جمعِ القلب علىٰ العلم المُلْقَىٰ، فيكون أنفعَ للمعلِّم والمتعلِّم.

ولم تكن هذه طريقة أهل العلم في كلِّ قطرٍ، حتَّىٰ حدث ما حدث مِن أحوال العلم الَّتي تجدَّدت، وهذا ينتفع به المنتهي، أمَّا أن يكون وسيلةً لنفع المبتدئين، فهذا يضرُّهم.

وقد أشار الزَّركشيُّ في «قواعده» إلىٰ أنَّ العلم لا ينفع إلَّا إذا أُخِذ أوَّلًا علىٰ سبيل الإجمال، ثمَّ أُخِذ ثانيًا علىٰ سبيل التَّفصيل.

وأشار إليه مطوَّلًا ببيانٍ مفصَّلٍ ابن خلدون في «مقدِّمته».

ثمَّ قال: (ويتلقَّىٰ بعدَها الأصولَ المتوسِّطة؛ مستوفاةَ الشَّرح والبيانِ، مع ذِكْرِ ما هنالك من الخلاف ووجهِه، فتقوىٰ بذلكَ ملكتُه في الفنِّ)، فيزيده شرحًا وبيانًا، ويذكر له الخلافَ في تلك المسائل، ويُبيِّن له وجهَه، فتكون هذه الزِّيادة محلًّا للعَقْلِ؛ لأنَّ أصولَها متقرِّرةٌ في قلبه من قبلُ.

قال: (ثمَّ يتلقَّىٰ بعدها الأصولَ المطوَّلة؛ مستكمِلًا شرحَها وبيانَها ومعرفةَ خلافيَّاتِها، ويُزَادُ له حلُّ المُشكلاتِ)؛ أي ما يشتبِه مِن مسائل العلم، (وتوضيحُ المُبْهَماتِ)؛ أي ما يخفىٰ منها، (وفتحُ المقفلاتِ)؛ أي ما ينغلق مِن مسائل العلم ويحتاج إلىٰ محاولةٍ في دَرْكِه، (فيصل بِهذه العُدَّةِ إلىٰ ملكةِ الفَنِّ)؛ أي يقوىٰ فيه بِهذه الجادَّة الَّتي يسلكها ملكَةُ العلمِ؛ لأنَّه يُزاد له في العلم شيئًا فشيئًا.

فمثلًا: يُذكَر له في باب الاعتقادِ أوَّلًا اعتقاد أهل السُّنَّة مؤصَّلًا مفصَّلًا في كتابٍ أو كتابين، ثمَّ بعد ذلك يُزادُ ذِكْرَ أقوال المخالفين، ثمَّ بعد ذلك يُزادُ الجوابَ عن أقوالهم، فإذا ابتُدئَ المتعلِّم بذِكْر قول أهل السُّنَّة، وأقوالِ المخالفين، وشُبَه أولئك، وكيفيَّة الرَّدِّ عليها؛ لم ينتفع طالب العلم.

فالَّذي يتكلَّم مثلًا عن كلام الله، ثمَّ يُبيِّن اعتقادَ أهل السُّنَّة في الكلام الإلهيِّ، ثمَّ يقول: وخالف فيه جماعةٌ من أهل الفِرَق علىٰ سبعة مذاهبٍ، فالمذهب الأوَّل كذا، والمذهب الثَّاني كذا...، حتَّىٰ يُتمَّ السَّبعةَ، ثم يذكر شبهات كلِّ مذهبٍ، ثمَّ يبدِّد تلك الشُّبهات بما يُبَيِّن من وجوهِ كشْفِها، فهذا يَخْرجُ - ولا أقول: يتخرَّج - من عنده الطَّالبُ وقد خلَطَ اعتقادَ أهل السُّنَّة باعتقاد أهل البدع.

ولذلك تجد مسائلَ من الاعتقاد إذا سألتَ عنها مَنْ أخذَ مُدَّةً في دراسته لا يصيبُ فيها قول أهل السُّنَّة؛ لأنَّه خُلِط له قول أهل السُّنَّة بقولهم، فلم يتميَّز عندَه، ويظنُّ أنَّه أدرك علم الاعتقاد، وهو في الحقيقة لم يُحِطْ به علمًا؛ لِمَا جرىٰ له من الخَلْط فيه،

فصار التَّخليط في تعليمِه مُثمِرًا التَّخليط في علمِه، وجرِّب هذا في النَّاس تجدْ صدْقَ ما ذكرتُ لك.

قال: (وهو شبيهٌ) - يعني تدريج المتعلِّمين - (باجتماع الخَلْقِ علىٰ ترتيب الدِّراسة النِّظاميَّة فيما دون الجامعة في مراحلَ ثلاثٍ: الابتدائيَّة والمتوسِّطة والثَّانويَّة)؛ فهذه المراحل الثَّلاث هي سُلَّمٌ عندهم لبلوغ الدِّراسة الجامعيَّة، والأصلُ لزومُها.

فلا يمكِنُ أن يأتي غِرٌّ ابنُ سبع سنين فيدخل الجامعة مباشرةً، حتَّىٰ نوابغَ الخلق، فإنَّ نوابغَ الخلق هؤلاء هم حالُ استثناءٍ - والاستثناء لا يُقَاس عليه -، ومع وجود الاستثناء فإنَّه قياسٌ فاسدٌ؛ لأنَّ النَّظر إلىٰ مجرَّد القوَّة الظَّاهرة دون القوَّة الباطنة يُضْعِفُ الأخذَ، فهذا الَّذي يُوجَد منه قوَّةٌ ظاهرةٌ في تعاطي علمٍ ما، لا يمكنه الاطِّلاع علىٰ القوَّة الباطنة، وهي رسوخُ تلك المعارف في قلبه وعدمُ تشوُّشها، وهذا لا يحصل إلَّا بمدَّةٍ مديدةٍ، ثمَّ بعد ذلك تكون له المُكْنَة في العلم.

فإذا كان ممنوعًا مِن سلوك هذا علىٰ طريقة أهل الدُّنيا؛ فأولىٰ أن يُسلَك بالنَّاس ما ينفعهم بطريقة أهل العلم والدِّين، بتدريجهم شيئًا فشيئًا حتَّىٰ يبلغوا كمالات العلم.

وأمَّا التَّخليط عليهم فإنَّه يُثمِر خروج طلَّاب علمٍ يُنسَبون إليه، هم علىٰ التَّحقيق ليسوا من أهله المحقِّقين له، فتجدُ عندهم الخلطَ بين أنواع المسائل، وعدمَ الفهم لكلام أهل العلم ممَّا نرىٰ آثاره اليوم.

فالَّذي أضعفَ العلم في النَّاس، وأذهب بَهجته، وجعلهم يَتَهَارشون فيه بما لا يليقُ بالعلمِ وأهله، ويُحمِّلُ كلُّ أحدٍ منهم مقالةَ الآخر ما لا يحتمل؛ هو الجهل بالعلم، فإنَّه لو سكت الجاهلون لقلَّ الخلاف.

ويُؤثَر عن عليٍّ أنَّه قال: «العلم نقطةٌ، كثَّرها الجاهلون».

فتجدُ المزايداتِ علىٰ مسائلَ من العلم لا يحسُن إحكامُها فيمن تكلَّم فيها ابتداءً، ولا يحسُن الحكمُ عليها فيمن تكلَّم في قولِه ثانيًا، فيكون لهذا مورِدٌ معتَدٌّ به، ويكون للآخر مَوْردٌ معتَدٌّ به، ثمَّ يُخطئ هذا في هذا وذاك في هذا، ثمَّ يخطئ مَنْ بعدَهم مَنْ يُخْطِئ بتفريق أهل العلم بِهذه المسائل، مع صحَّة قول هذا في مَوْرِدٍ، وصحَّة قولِ ذاك في موردٍ آخرَ، لمَنْ عقل العلم وحقيقتَه.



قَالَ المُصَنِّفُ وَفَّقَهُ اللهُ:



الخاتمة

وإنِّي موصيك بأربعٍ لن تُدرِك العلمَ إلَّا وهنَّ معك، تصحبُكَ حتَّىٰ تموتَ:

أُولاهنَّ: التَّحقُّق بإخلاصِ النِّيَّة فيه، فإنَّ العلمَ صيدٌ وشِرَاكُه النِّيَّةُ، ومدارُ نيَّته المحقِّقة للإخلاص فيه علىٰ أربعة أمورٍ:

أوَّلها: رفع الجهل عن النَّفس؛ بتعريفها طريق العُبوديَّة.

وثانيها: رفع الجهل عن الخلق؛ بإرشادهم إلىٰ مصالح دنياهم وأُخراهم.

وثالثها: العمل به؛ فإنَّ العلم يُرَاد للعمل.

ورابعها: إحياؤُه وحفظُه مِنَ الضَّياع، وهذا المعنىٰ متأكِّدٌ في حقِّ المتأهِّل المهيَّأِ له، القادرِ عليه.

وإليهنَّ أشرتُ بقولي:

وَنِيَّةٌ لِلْعِلْمِ رَفْعُ الْجَهْلِ عَمّْ ... عَنْ نَفْسِهِ فَغَيْرِهِ مِنَ النَّسَمْ

وَبَعْدَهُ التَّحْصِينُ لِلْعُلُومِ مِنْ ... ضَيَاعِهَا وَعَمَلٌ بِهِ زُكِنْ

فمنِ اجتمع له قصدُها كمُلت نيَّتُه في العلم.

والثَّانية: اعزِمْ ولا تتَرَدَّد، فالعزم مركبُ الصَّادقين، ومَنْ لم تكن له عزيمه؛ لم يفرح بغنيمه، فإنَّ العزائمَ جلَّابة الغنائم، فاعْزِمْ تَغْنَم، وإيَّاك وأمانيَّ البطَّالين.

وَتَمُدُّ قوَّةَ العزمِ ثلاثة مواردَ:

أوَّلها: مورد الحِرص علىٰ ما ينفع.

وثانيها: مورد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ.

وثالثها: مورد خلعِ ثوب العَجز والكسَل.

وهنَّ في قولِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»، فجُمَلُه الثَّلاث منابعُ المَوَارد، واحدًا واحدًا؛ حذوَ القُذَّة بالقُذَّة.

وممَّا يُحَرِّك العزائمَ: إدمانُ مطالعة سِيَرِ المُنْعَم عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين؛ فالاعتبارُ بحالهم، وتَعَرُّفُ مصاعدِ هممهم؛ يثوِّر عَزْمَتَك، ويقوِّي شَكِيمَتَك، فلا تَحْرِم نفسَك مِن آثارهم، وطالِعْ ما استطعتَ مِن سِيَرهم.

والثَّالثة: قلِّلِ الدُّروس وأحْكِمِ المَدْرُوسَ، ولازمِ التَّكرارَ، واحرصْ علىٰ مذاكرة الأقران، ففي المذاكرة إحياء الذَّاكرة، والعلمُ غَرْسُ القلبِ، والغرسُ بلا سُقيَا يموتُ، وسقيا العلم مذاكرتُه.

ومِن بدائع الألفاظ المُسْتَجَادةِ مِن قرائحِ الحفَّاظِ قولُ أبي الحجَّاج المزِّيِّ الحافظِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهْ
فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ

وتركُ الاستذكار بعد التَّحفُّظ والتَّفهُّم يَضيع به زمنٌ طويلٌ في ابتغاء استرجاعِ مفهومٍ ذهبتْ معانيه، أو محفوظٍ نُسِيَت مَبَانيه.

والرَّابعة: اصطحبِ السَّكينةَ والأناة، وتجمَّل بالصَّبْرِ، ففي التَّأنِّي نيلُ بُغْيَةِ المتمنِّي، والثَّباتُ نباتٌ، وإنَّما يُجمَع العلم بطول المدَّة وتجويد العُدَّة.

فمَن طلبَ العلم في أيَّامٍ وليالٍ فقد طلب المحال، ومن حشا قلبه شيئًا فشيئًا سالَ وَادِيه وأروىٰ قاصِدِيه، **ونهاية العَجول تشتُّتٌ وأُفول**.

وهذا منتهىٰ المقالَه، في نصح مَنِ التمس العلم وابتغىٰ نوالَه، استلَلْتُها من مدوَّنةٍ سابقه، رجاءَ منفعةٍ سامقه، فالخُلَاصة تدفع الخَصَاصة، وقِصَرُ الخطبةِ معَ البيان من مُنِيرَات الأذهان.

صَـــيَّرَهَا اللهُ لِكُـــلِّ مُلْـــتَمِسْ	نَافِعَـــةً مُنِيــــرَةً لِلْمُقْتَـــــبِسْ
وَخَتْمُهَـــا بِالْحَمْـــدِ فِـــي ذُرَاهُ	يُبَلِّـــغُ الْعَبْـــدَ الَّـــذِي ابْتَغَـــاهُ
ومَـــنْ قَـــرَا فَلْيَـــدْعُ بِـــالتَّوْفِيقِ	لِكَاتِـــــبٍ وَقَـــــارِئٍ مُطِيـــــقِ

وكتبه
صالح بنُ عبد الله بن حمدٍ العُصيميّ
يوم الثُّلاثاء الحادي عشر من جمادى الأولى
سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ

قَالَ الشَّارِحُ وفّقه الله:

ختم المصنِّف - وفقه الله - مقالتَه بقولِه: (وإنِّي موصيك بأربعٍ لن تُدرِك العلمَ إلَّا وهنَّ معك، تصحبُكَ حتَّىٰ تموتَ)، فمحَّضَ النُّصح لملتمس العلم المبتغي نوالَه بتوجيه نظرِه إلىٰ أمورٍ عظيمةٍ، فإنَّ **الوصيَّةَ** اسمٌ لما يَعْظُمُ شرعًا أو عُرفًا.

(**أُولاهنَّ: التَّحقُّق بإخلاصِ النِّيَّة فيه**، فإنَّ العلمَ صيدٌ وشِرَاكُه النِّيَّةُ)، ولا ينبُلُ في العلم النَّافع إلَّا مَنْ أخلص نيَّته فيه لله.

(ومدارُ نيَّته المحقِّقة للإخلاص فيه علىٰ أربعة أمورٍ:

أوَّلها: رفع الجهل عن النَّفس)؛ بأن تنوي رفع الجهل عن نفسِك، (بتعريفها طريق العُبوديَّة)؛ فمُرَادك من العلم أن يدلَّكَ علىٰ طريق عبوديَّتك الله.

(وثانيها: رفع الجهل عن الخلق)؛ فتنوي في ابتغائكَ العلمَ أن ترفعَ الجهل عن الخلق، ورفعُه عنهم يكون (بإرشادهم إلىٰ مصالح دنياهم وأُخراهم)؛ فلا يبتغي العبدُ عند بذلِه العلمَ من النَّاس شيئًا من الدُّنيا؛ لا مالًا، ولا منصبًا، ولا جاهًا، ولا رئاسةً، ولا شكرًا، ولا ذِكْرًا، ولا مدحًا، ولا ثناءً.

ومنتهىٰ أمرِه فيهم أن يكون هاديًا لهم، يُرْشِدُهم إلىٰ مصالحهم في الدُّنيا والآخرة، وإذا تبوَّأ رتبة الهداية والإرشاد جعله الله للمتَّقين إمامًا.

وإذا كان منتهىٰ أمله في الخلق أن يذكروه، أو يشكروه، أو يُنَصِّبوه، أو يجعلوا له جاهًا؛ فإنَّ هذا يُفوِّت علىٰ نفسِه الخير العظيم، ويُوقعها فيما يقرِّبُها من العذاب الوخيم.

(وثالثُها: العملُ به)؛ فينوي أن يعمل بالعلم، (فإنَّ العلم يُرَاد للعمل).

(ورابعها: إحياؤُه وحفظُه مِنَ الضَّياع)؛ بأن ينوي في أخذه العلمَ أن يبقىٰ العلمُ حيًّا نضِرًا قويًّا في المسلمين محفوظًا من الذَّهاب والضَّياع، (وهذا المعنىٰ متأكِّدٌ في حقِّ المتأهِّل المهيَّأِ له، القادِرِ عليه)؛ فمَنْ كانت له قدرةٌ علىٰ العلم وأهليَّةٌ فيه، بوجود أسبابِ تعاطيه من الحفظِ، والفهمِ، والذَّكاء، والنَّباهة، والفِطنة، والفراغ، والمال...، وغيرها؛ صار أخذُ العلمِ في حقِّه آكَدَ.

ولأجل هذا ذهب جماعةٌ من الفقهاء أنَّ العلومَ الَّتي هي فروضُ كفايةٍ تكون في حقِّ بعض النَّاس فروضَ عيْنٍ، قيامًا بحقِّ حفظ الشَّريعة؛ ذكره مبسوطًا القَرافيُّ في «الفروق».

وفي أخبارِ شيخِ شيوخنا محمَّد الأمين بن محمَّد المختار الجَكَنِيِّ الشِّنقيطيِّ: أنَّ بعض أشياخه لمَّا رأىٰ فطنته وذكاءه قال: يا بني؛ إنَّ مِن العلوم الَّتي هي فرضُ كفايةٍ ما يكون فرضَ عينٍ في حقِّ أحدٍ، وإنَّك من هؤلاء.

ثمَّ قال: (وإليهنَّ أشرتُ بقولي:

وَنِيَّـةٌ لِلْعِلْـمِ رَفْـعُ الْجَهْـلِ عَـمّْ عَـنْ نَفْسِـهِ فَغَيْـرِهِ مِـنَ النَّسَـمْ

وَبَعْـدَهُ التَّحْصِـينُ لِلْعُلُـومِ مِـنْ ضَـيَاعِهَا وَعَمَـلٌ بِـهِ زُكِـنْ)

وقوله: (النَّسَمْ)؛ أي النُّفوس، **فالنَّسَم**: جمع نَسَمَةٍ، وهي النَّفس.

وقوله: (زُكِنْ)؛ أي ثبتَ.

(فمنِ اجتمَعَ له قصدُها كمُلَت نيَّتُه في العلم).

(**والثَّانية: اعزِمْ ولا تتَردَّد**، فالعزم مركبُ الصَّادقين)؛ **والعزمُ** هو الإرادة الجازمة، وإذا فاتَ العبدُ عزمَه فاتته الغنائم.

قال: (ومَنْ لم تكن له عزيمه؛ لم يفرح بغنيمَه، فإنَّ العزائمَ جلَّابة الغنائم)؛ أي المستدْعِية لها، (فاعْزِمْ تَغْنَم، وإيَّاك وأمانيَّ البطَّالين)؛ لأنَّ **الأمانيَّ رؤوس أموال المَفَاليس**؛ قاله ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ثمَّ ذكر (أنَّ قوَّة العزم تُمَدُّ بثلاثةِ موارد:

(أوَّلها: مورد الحِرص علىٰ ما ينفع.

وثانيها: مورد الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ.

وثالثها: مورد خلع ثوب العَجز والكسَل).

وبرهانُها: قولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ**»).

قال: (فجُمَلُه الثَّلاث منابعُ المَوَارِد)؛ أي تنبع منها تلك الموارد المذكورة آنفًا، (واحدًا واحدًا؛ حذوَ القُذَّة بالقُذَّة)؛ **والقُذَّةُ**: اسمٌ لريشة السَّهم الَّتي تكون في آخره، ممَّا يُشَدُّ في حَبْلِ القَوْسِ.

قال: (وممَّا يحرِّكُ العزائمَ: إدمانُ مطالعة سِيَرِ المُنْعَمِ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين؛ فالاعتبارُ بحالِهِم، وتَعرُّفُ مصاعدِ هممهم؛ يثوِّر عَزْمَتَك، ويقوِّي شَكِيمَتَك)؛ فمِن أنفع ما يكون للطَّالب مطالعتُه سِيَرَ مَن مضىٰ.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صيد الخاطر»: (لا أجدُ لطالبِ العلم أنفعَ مِن مطالعةِ سير السَّلف).

وذكر ابنُ مفلحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ الفقه والعلمَ إذا لم يُقرَنَا بالنَّظر في سير السَّلف، والقراءةِ في كتب الرَّقائق؛ قلَّتْ منفعتُه، وذهبت بَهجتُه.

قال: (فلا تَحْرِم نفسَك مِن آثارهم، وطالِعْ ما استطعتَ من سِيَرِهم).

۞ **ثمَّ قال في الوصيَّة الثَّالثة:** (**والثَّالثة: قلِّلِ الدُّروس وأحْكِمِ المَدْرُوس، ولازم التَّكرارَ، واحرصْ علىٰ مذاكرة الأقران**، ففي المذاكرة إحياء الذَّاكرة، والعلمُ غَرْسُ القلبِ، والغرسُ بلا سُقيَا يموتُ، وسقيا العلم مذاكرتُه)؛ **والمذاكرةُ** هي المراجعة مع الأقران بذِكْر كلِّ واحدٍ منهم ما وَقَرَ في قلبه من العلمِ عن شيخهم، فيجتمعون بعد الدُّروس ويذكُرُ كُلُّ واحدٍ منهم في مسائلِه ما تلقَّوا عن شيخهم في كتابٍ ما أثناء دراسته، فيحفظون العلم بذلك.

وإطلاقُ اسم (المذاكرة) علىٰ فعل الواحدِ لا يصحُّ لغَةً، بل يُسمَّىٰ (مطالعةً)، ولا يُسمَّىٰ (مذاكرةً) إلَّا إذا كانت فيه مُفَاعَلَةٌ مِن الذِّكْرِ مع غيره.

ثمَّ قال: (ومِن بدائع الألفاظ المُسْتَجَادةِ مِن قرائح الحُفَّاظِ) - أي مِنَ الأشعار المستجادة المنقولة عمَّنْ يُنسَب إلىٰ العلم - (قولُ أبي الحجَّاج المزِّيِّ الحافظِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَنْ حَازَ الْعِلْمَ وَذَاكَرَهُ ... حَسُنَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهْ

فَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً فَحَيَاةُ الْعِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ)

ثمَّ قال: (وتركُ الاستذكار بعدَ التَّحفُّظ والتَّفهُّم يضيع به زمنٌ طويلٌ في ابتغاء استرجاعِ مفهومٍ ذهبتْ معانيه، أو محفوظٍ نُسِيَت مَبَانيه)؛ فلا بدَّ مِن تَعَاهُدِ المحفوظات والمفهومات مرَّةً بعد مرَّةٍ، ويُرَتِّب من وقتِه في زمانِ تلقِّيه ما يكون لاسترجاعها.

ثمَّ إذا أفضىٰ إلىٰ العطلة جعلَ شغلَه في عطلتِه استرجاعَ ما تقدَّم منه من محفوظٍ أو مفهومٍ، ثمَّ إنْ بقيَ منها شيءٌ بدأ بشيءٍ جديدٍ.

ولا يجعلُها محلًّا للبداءة بشيءٍ جديدٍ، فإنَّ هذا يضيعُ به العلم، فهو يَحمِل نفسَه في أوقاتِ الشُّغل بالدِّراسة أو العمَل علىٰ تلقِّي علمٍ جديدٍ، ثمَّ يجعلُ العطلةَ محلًّا لذلك أيضًا!، فلا يَزالُ مِن جديدٍ في جديدٍ حتَّىٰ لا يبقىٰ معه شيءٌ منه، لكن مَنِ اغتنم فرص العطَل المؤقَّتة العامَّة والخاصَّة لمراجعة العلم بقيَ معه العلمُ.

ولا ينبغي أن يكِلَّ المرءُ من ذلك أو يأْنَفَ منه مع تقدُّمه في العلمِ، فإنَّ العاقل لا يرىٰ من النَّقْصِ أن يُرَىٰ - وهو ممَّن يشار إليه بالعلم - أن يكون في يده «ثلاثة الأصول» يعيدُ تحفُّظها ويذكُر فيما سبق منه في فهمها، فإنَّ كُمَّل أهل العلمِ لم تزلْ هذه عادتُهم؛ أنفةً من ذهاب العلم من قلوبِهم، فإنَّ العلم إذا لم يكرَّر النَّظرُ فيه ذهب.

ومن أخبار شيوخنا في ذلك: أنَّ شيخنا عليًّا بنَ حَمَدٍ الصَّالحيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو مِن كبار أصحاب العلَّامة ابن سِعديٍّ - أمسك يومًا بيدِ تلميذِه الشَّيخ محمَّد بن صالح ابن عثيمين - وكان في ابتداء الطَّلب ممَّن أخذ عنه «العقيدةَ الواسطيَّة» -، وقال له: وَدِدتُ لو جلسنا يا شيخ محمَّد في وقتٍ نُراجِع فيه محفوظاتنا.

يقولُ هذا وهو قد قارَبَ السَّبعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ!

۞ ثمَّ قال: (**والرَّابعة: اصطحبِ السَّكينةَ والأناة**)؛ والفرق بين السَّكينة والأناة: أنَّ **السَّكينة**: سكونٌ مطلَقٌ، **وأمَّا الأناة**: فسكونٌ فِي مقابل ما يُثِيرُ، فإذا رُوجِع صاحب العلم بِمَا يُغْضِبُه ويعكِّر صَفْوَهُ فسكنَ؛ كان موصوفًا بالأناة.

قال: (**وتجمَّلْ بالصَّبْرِ**، ففي التَّأنِّي نيلُ بُغْيَةِ المتمنِّي، والثَّباتُ نباتٌ، وإنَّما يُجمع العلم بطول المدَّة وتجويد العُدَّة)؛ **والعُدَّة** هي آلة العلم، **وتجويدُها**: تقويتها.

(فمَن طلب العلم فِي أيَّامٍ وليالٍ فقد طلب المحال، ومن حشا قلبه شيئًا فشيئًا سالَ وَادِيه وأروىٰ قاصِدِيه، **ونهاية العَجول تشتُّتٌ وأُفول**)؛ أي منتهىٰ ما يصير إليهِ أمرُ المستعجِل أن يتشتَّت في العلم، ثمَّ يأفَلُ نجمُه منه، ويزولَ اسمُه عن ديوانِ أهلِه.

ثمَّ قال: (وهذا منتهىٰ المقالَه، فِي نصحِ مَنِ التمس العلمَ وابتغىٰ نوالَه، استلَلْتُها من مدوَّنةٍ سابقه)؛ أي استخرجتُها علىٰ وجهٍ مستلَطَفٍ من كتابٍ سابقٍ، (رجاءَ منفعةٍ سامقه)؛ أي عالية، (فالخُلَاصة تدفع الخَصَاصة)؛ **والخَصَاصة** هي الحاجَة، فخُلاصَة ما يُلقىٰ من العلم تسدُّ حاجة المتعلِّم.

(وقِصَرُ الخطبة) - من الكلام - (معَ البيانِ) - أيِ الإيضاح - (من مُنِيرَات الأذهان)؛ فممَّا تستنيرُ به الأذهان وتقوَىٰ؛ أن يكون ما يُلقىٰ إليها من العلم قليلًا بيِّنًا واضحًا جامعًا مختصرًا؛ ليكون أوعىٰ في القلوب حفظًا وفهمًا.

ثمَّ ختمها مصنِّفها بنظير ما ابتدأها به؛ فإنَّه ابتدأها بثلاثة أبياتٍ نظمًا في الصَّلاة والسَّلام علىٰ النَّبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ ختمها بثلاثة أبياتٍ فقال:

(صَيَّرَهَا اللهُ لِكُلِّ مُلْتَمِسْ نَافِعَةً مُنِيرَةً لِلْمُقْتَبِسْ
وَخَتْمُهَا بِالْحَمْدِ فِي ذُرَاهُ يُبَلِّغُ الْعَبْدَ الَّذِي ابْتَغَاهُ
ومَنْ قَرَا فَلْيَدْعُ بِالتَّوْفِيقِ لِكَاتِبٍ وَقَارِئٍ مُطِيقِ)

وقوله: (فِي ذُرَاهُ)؛ أي في أعلىٰ مراتبه، **فذُروةُ الشَّيء**: أعلىٰ ما فيه.

وذالها مضمومةٌ، وتُكسَر؛ فيُقال: ذُروةٌ، وذِروةٌ، وذُكِر الفتح في لغةٍ رديئةٍ.

وقوله: (مُطِيق)؛ أي مستطيعٍ.

(وكتبه

صالح بنُ عبد الله بن حمدٍ العُصيميّ
يوم الثُّلاثاء الحادي عشر من جمادى الأولى
سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ)

وبِهذا نكون قد فرغنا بحمد الله من بيان معاني هذا الكتاب بما يناسب المقام.

[فائدةٌ]:

من الخطأِ الشَّائعِ تسميةُ شهور العربِ بأرقامٍ، فالعرب تجعل للشُّهور أسماءً ولا تجعل لها أرقامًا، فيقولون: شهر المحرَّم، لا شهر ١، ويقولون: شهر صفر، لا شهر ٢، ويقولون: شهر ذي الحِجَّة، لا الشَّهر ١٢.

واستفدتُ هذه الفائدةَ مِن العلَّامة محمَّد الصِّدِّيق الضَّريرِ، من علماء السُّودان، وكان مشارًا إليه بالعلم في الفقهِ خاصَّةً، وفي أبواب المعاملات أخصُّ، وهو مشهورٌ بِهذا، وكان عضوًا لمَجْمَع الفقه في هذه البلاد، فأهداني مرَّةً في زيارةٍ له كتابًا، فقال لي: ما التَّاريخ اليوم بالتَّاريخ العربيِّ؟، قال: لأنَّ بلادنا يخفىٰ فيها، فالتَّاريخ فيها بتاريخ النَّصارىٰ.

فقلتُ له: كذا وكذا وكذا؛ بالأرقام.

فقال: العربُ لا تؤرِّخ بالأرقام، قال: ولم أرَ هذا إلَّا عندكم في السُّعوديَّة، يعنِي كتابة التَّاريخ العربيِّ بالأرقام، أمَّا غيرنا فليس عندهم التَّاريخ العربيُّ، وإنَّما عندهم هذا التَّاريخ الآخر وهو تاريخ النَّصارىٰ وهو بالأرقام، فإنَّهم يستعملوه، وأمَّا أهل الإسلام

من العرب - وهو أصل لغة الإسلامِ علىٰ ما بسطه الشَّاطبيُّ في «الموافقات» - فإنَّهم يؤرِّخون بأسماء الشُّهور.

تَمَّ الشَّرْحُ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ
يوم السَّبت الخامس من شهر ذي الحِجَّة
سنةَ ستٍّ وثلاثين وأربعمائةٍ وألفٍ
في مسجد ابن بازٍ بمدينة مكة المكرمة

